

Columbia University
in the City of New York

THE LIBRARIES

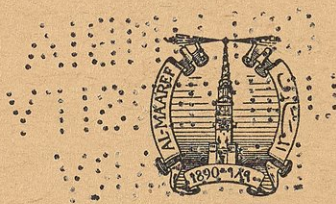




39141

طَهَ حَبِين

دُعَاؤُ الْكَسْرَوَانِ



مَطْبَعَةُ الْمَعَارِفِ وَمَكْتَبَتُهَا بِبَغْدَادِ

893.74954

P5

45-39141

COLUMBIA
UNIVERSITY
LIBRARY

الى صديقي الأستاذ الكبير عباسي محمود العقاد

سيدى الأستاذ

أنت ألفت للكروان ديواناً فتحماً في الشعر العربي الحديث ،
فهل تأذنه في أنه اتخذ له عساً متواضعاً في النثر العربي الحديث ،
وأنه أهدي اليك هذه القصيدة تحيةً خالصة من صديق مخلص
طه حسين



حَادِثَةٌ فِي رَيْفٍ مِصْرٍ جَرَتْ
وَمِثْلُهَا فِي الرِّيفِ كَمْ يَجْرِي
قُصَّتْ عَلَيْنَا قِصَصًا شَائِقًا
فِي كَلِمَةٍ أَنْقَى مِنَ الْقَطْرِ
مَسْرُودَةٌ سَرْدًا عَلَى صَفْوِهِ
أَفْعَلٌ فِي النَّفْسِ مِنَ الْخَمْرِ
يَا لُغَةَ الْعَرَبِ الَّتِي كَاشَفَتْ
طَهَ بِمَا صَانَتْ مِنَ السَّرِّ
مَنْ أَىَّ رَوْضٍ يُجْتَنَى مِثْلُ مَا
جَنَاهُ مِنْ أَزْهَارِكِ النَّضْرِ
مَنْ أَىَّ بَحْرٍِ وَلَمْنَى دُرُّهُ
يُصَادُ مَا صَادَ مِنَ الدَّرِّ
مَنْ أَىَّ تَبَرٍّ فِي غَوَالِي الْحَلَى
يُصَاغُ مَا صَاغَ مِنَ التَّبَرِّ
آيَاتُ طَهَ نَزَلَتْ بِالْهُدَى
فِيمَ اسْتَعَارَتْ فِتْنَةَ السَّحْرِ

أُحْدِثُ مَا جَاءَتْ بِهِ طُرْفَةٌ

بَدِيعَةٌ فِي أَدَبِ الْعَصْرِ

جَلَّتْ خِيَالَ الشَّعْرِ فِي صُورَةٍ

أَغَارَتْ الشَّعْرُ مِنَ النَّثْرِ

أُتِيحَ لهذه القصة أن تبلغ من نفس شاعرنا
العظيم خليل مطران موضع الرضى فأهدى
إلى هذه القصيدة الرائعة فضلاً منه أتقبله
خفوراً شكوراً . وأكره أن أوثر به
نفسى من دون الذين يحبون الشعر الرفيع
بل أكره أن يحملنى التواضع الكاذب على
إخفاء هذه المكرمة التى إن صورت شيئاً
فإنما تصور نفساً كريمة وقلباً عطوفاً :

دُعَاءُ هَذَا الْكَرَّانِ الَّذِي
خَلَدَتْهُ فِي مَسْمَعِ الدَّهْرِ

لَهُ صَدَى فِي الْقَلْبِ وَالْفِكْرِ مِنْ
أَشْهَى مَتَاعِ الْقَلْبِ وَالْفِكْرِ
لَكِنَّهُ مُشْجَرٌ بَتَرَجِيعِهِ

لَمَّا جَرَى فِي ذَلِكَ الْقَفْرِ

إِذْ تَسْكُنُ الْبِيدَاءَ وَهَنًا فَمَا
يَنْبِضُ إِلَّا مَهْجُ السَّفْرِ

واللَّيْلُ فِي التَّيِّهِ السَّحِيقِ الْمَدَى
يُطْبِقُ جَفْنَيْهِ عَلَى وَرْرِ
وَالطَّائِرُ الْمُرْتَاعُ فِي جَوْهِ
يُنْذِرُ بِالْمَأْسَةِ فِي دُغْرِ
يُرْنُ إِزْنَانَ سِهَامٍ رَمَتْ
حَيْثُ رَمَتْ بِالشَّعْلِ الْحُمْرِ
أَسَالَ دَمْعِي خَطْبُ مَطْلُوعٍ
مَقْتُولَةٍ فِي زَهْرَةِ الْعُمْرِ
جَنَى عَلَيْهَا وَاهِمٌ أَنَّهُ
يَثَارُ لِلْعَرَضِ وَلِلظُّهْرِ
وَخَامَرْتَنِي حَسْرَةٌ خَامَرْتُ
شُهُودَ ذَاكَ الْمَضْرَعِ النَّكْرِ
أَلَيْسَ لِلْأَرْوَاحِ فِي بَثِّهَا
أَوَاصِرٌ مِنْ حَيْثُ لَا تَدْرِي
جَوْهَرُهَا فَرَدُّ وَإِحْسَاسُهَا
مُشْتَرِكٌ فِي النَّفْعِ وَالضَّرِّ

لم يكن يقدر أنى سألقاه قائمة باسمه حين أقبل إلىّ فى ظلمة الليل
يسعى كأنه الحية أو كأنه اللص ، ولكنه لم يكد يبلغ باب الغرفة
ويتبين شخصى ماثلا فى وسطها وعلى وجهه ابتسامة شاحبة كأنها
ابتسامة الأشباح ، حتى أخذه شىء من الذعر فتراجع خطوات ثم قال
فى صوت أبيض جعل يأخذ صوته الطبيعى قليلا قليلا : ماذا !
ألا تزالين ساهرة إلى الآن ؟ أتعلمين متى أنت من الليل ؟ قلت : لقد
جاوزت ثلثيه وما كان ينبغى لى أن أنام قبل أن ينام سيدى ، فما
يدربنى لعله يحتاج إلى شىء . قال وقد عاد إلى ثباته وهدوء نفسه
واسترد صوته شيئا من قخته المألوفة ودعابته البغيضة : ما رأيت قبلك
خادما مثلك تحسن العناية بسيدها وتسهر منتظرة مقدمه إلى آخر
الليل ، لقد كنت أحسبك نائمة كما تعودت أن أرى من سبقك
فى خدمتى ، وكنت أقدر أنى سأجد فى إيقاظك بعض الجهد ،
فلست أدرى ما بال نوم الخدم يثقل حتى كأنهم أموات . قالت : قد
أرحت سيدى من هذا الجهد ، وانتظرت مقدمه كما تعودت منذ

اصطنعت خدمة المترفين الذين لا يحبون إنفاق الليل في دورهم ، فليأمر
سيدي بما يريد . قال وهو يضحك ضحكا سمجاً وقد مد إلى يداً
وددت لو استطعت قطعها ، ولكنى تراجعت حتى لا تبلغنى : فإن
سيدك يأمرك أن تتبعه .

ثم انحدر إلى غرفته ومضيت في أثره .



لبّيك لبّيك أيها الطائر العزيز ، ما زلت ساهرة أرقب مقدمك
وأنتظر ندائك ؛ وما كان ينبغي لى أن أنام حتى أحس قربك ،
وأسمع صوتك ، وأستجيب لدعائك . ألم أعود هذا منذ أكثر من
عشرين عاماً ؟ !

لبّيك لبّيك أيها الطائر العزيز ، ما أحبّ صوتك إلى نفسى إذا
جثم الليل ، وهذا الكون ، ونامت الحياة ، وانطلقت الأرواح في
هذا السكون المظلم ، آمنة لا تخاف ، صامئة لا تسمع !

إن صوتك إذن لأشبه الأشياء بأن يكون صوتاً لروح من هذه
الأرواح ، ليذكرنى روح هذه الأخت التى شهدت مصرعها معى
فى تلك الليلة المهيبة الرهيبة ، وفى ذلك الفضاء العريض الذى لم

يكن من سبيل إلى أن يسمع الصوت فيه مهما يرتفع ، ولا أن
يجيب المغيث فيه لمن استغاث .

لبيك ، لبيك أيها الطائر العزيز ، أدن مني إن كان من أخلاقك
الدنو ، وأنس إلى إن كان من خصالك الأنس إلى الناس ،
واسمع مني وتحدث إلي ، وهلم نذكر تلك المأساة التي شهدناها معاً ،
وعجزنا عن أن ندفعها أو نصرف شرّها عن تلك النفس الزكية التي
أزهقت ، وعن هذا الدم البريء الذي سفك .

فلم نزد حينئذ على أن بعثنا صيحات ترددت في ذلك الفضاء
العريض ، ولكنها لم تبلغ أذناً ولم تصل إلى قلب ، وإنما
صعدت إلى السماء على حين هوى ذلك الجسم الجميل
الممزق في تلك الحفرة التي أعدت له إعداداً . ثم هيل
التراب ، وسويت الأرض ، وأنت تدعو ولا من يستجيب ،
وأنا أستغيث ولا من يغيث . وامرأة متقدمة في السن قد انتحت
ناحية وجلست تذرف دموعها في صمت عميق ، ورجل متقدم في
السن قد قام غير بعيد يسوى الأرض ، ويصب عليها الماء ،
ويردّها كما كانت . ثم ينتحي قليلاً ويزيل عن جسمه وثيابه
آثار الدم والتراب ، ثم يرتفع صوته آمراً أن هلم فقد آن لنا
أن نرتحل .

منذ ذلك الوقت تمّ العهد بينك وبينى أيها الطائر العزيز على
أن نذكر هذه المأساة كلما انتصف الليل حتى نثار لهذه الفتاة التى
غودرت فى هذا الفضاء ، ثم نذكر هذه المأساة كل ما انتصف
الليل ، بعد أن نظفر بالثأر ، ليكون فى ذكرنا إياها وفاء لهذه النفس
التي أزهقت ، ولهذا الدم الذى سفك ، ورضى عن الانتقام وقد
ألمّ بالآثم المجرم وردّ الأمر إلى نصابه ، وأراح هذه النفس التى
ما زالت تطلب الرى حتى تظفر بالثأر من الذين اعتدوا عليها .

لبيك ، لبيك أيها الطائر العزيز ، إنا لنلتقى كلما انتصف
الليل منذ أعوام وأعوام فندير بيننا هذا الحديث ، أفتدعى
أقص أطرافاً منه على الناس لعلمهم أن يجدوا فيه عظة تعصم النفوس
الذكية من أن تزهق ، والدماء البريئة من أن تراق ؟ !

(٢)

لقد بعد صوت الكروان قليلا قليلا حتى انقطع ولم يبلغنى منه
شئ ، وعاد الليل إلى سكونه الهادىء الثقيل ، واطمأن من حولى
كل شئ فما أسمع إلا هذه الدقات المنتظمة تصدر عن الساعة غير
بعيد ، وهذه الدقات المضطربة المختلطة تصدر عن هذا القلب

الحزين ؛ وأنا آخذ نفسى بالهدوء للألام بينها وبين ما حولها فلا أوفق إلى بعض ذلك إلا فى مشقة وعناء . وأنا أنظر إلى هذه الأشياء حولى فى الغرفة فأرى ثراء ويسرا ، وأرى ترفا وكلفا بالجمل والفن ، وأنا أمدّ عيني إلى المرأة أمامى وأثبتها فى أديمها الصافى الصقيل حيناً فتعود إلى بصورة إلا تكن رائعة بارعة ، فإنها لا تخلو من رواء ونضرة وحسن تنسيق . ومالى أسأل عن صورة هذه المرأة الجامدة الهامدة التى لا تحسّ شيئاً ولا تشعر بشيء ، ولا تعرب عن شيء ، وإنى لأرى صورتى مرّات ومرّات فى غير مرآة من هذه المرايا الحساسة الشاعرة البليغة التى تحسن الإفصاح عمّا فى النفوس وهى العيون ؟ !

لقد رأيت صورتى اليوم فى غير عين من هذه العيون التى كانت ترمقنى مسرعة ، ثم تعود إلى فتطيل النظر إلى قليلا ، ثم تعود إلى مرة أخرى ، فتثبت فى وجهى لا تكاد تنصرف عنه . وكنت كلّما رأيت صورتى فى هذه العيون يحيط بها الإعجاب والرغبة والشهوات الآثمة لا أنكر ما أرى ، ولا أكره ما أجد من الشعور ، ولا أردّ نفسى عن هذا الغرور الذى يشيرة فى المرأة أعجاب الناس بها وتهالكهم عليها .

ثم أنا أنهض من مجلسي ، وأمشي في غرفتي لحظة غير قصيرة ،
أذهب فيها وأجىء ، وأقف عندما يملأ هذه الغرفة من أدوات
الترف والنعمة ، فأطيل النظر إليه لا معجبةً به ، ولا مكبرةً له ،
وإنما أسأل نفسي : أنا صاحبة هذا كله ؟ أنا المالكه لهذا كله ؟
أنا صاحبة هذه الصورة التي تردّها إلى المرأة ، والتي كانت
ترمقها العيون معجبةً حين كنت أتناول الشاي في بعض مشاربه
عصر اليوم ؟ !

ثم أنا أفكر غير طويل فإذا أنا أستطيع ، وقد تقدم الليل
حتى كاد يبلغ ثلثيه ، أن أمدّ يدي إلى زر كهربائي قريب ، فلا
أكاد أمسه حتى يطرق الباب ، ولا أكاد أرفع صوتي بالإذن
حتى تدخل عليّ خادم وضيئة حسنة الشكل ، جميلة الزى ، ساهرة
مهما يتقدم الليل لأنني ما زلت ساهرة ، ولأنها لا تستطيع أن
تأوى إلى مضجعها حتى آذن لها بالنوم . . .

ثم أنا أمضي إلى هذه النافذة ، فلا أكاد أفتحها حتى تمتلئ
نفسى روعةً وجلالاً لهذه الأشجار النائمة ، وهذه الأزهار المتأرجة ،
وهذه الطييار التي تحلم في ثنايا الغصون . وكل هذا لي ملك
خالص لا يشاركني فيه أحد ، ولا يزاكني عليه أحد ، أستطيع

أن أعبت به إن شئت ، ومتى شئت ، وكيف شئت ، لا يسألني
أحد عما أفعل !

فإذا اجتمعت في نفسى صور هذا النعيم كله أحسست راحة
وأمنًا وثقة ؛ ثم لا ألبث أن أحس شيئًا من الكبرياء الغريبة
لأنى لا ألبث أن أرى صورتي منذ أكثر من عشرين عامًا حين
كنت صبية بأئسة يائسة ، قد شوّه البؤس واليأس شكلها وألقيا
على وجهها غشاءً كثيبًا من الدمامة والقيح . لا ألبث أن أجد
هذا الحزن اللاذع العميق حين أذكر هذه المأساة التى كنت أتحدث
بها منذ حين إلى هذا الطائر العزيز ، والتى كان يتحدث بها منذ
حين إلى هذا الطائر العزيز .

إنّ فى أحداث الحياة وخطوبها لعظاتٍ وعبرا ! إنى لأتحدث
الآن إلى نفسى حديثًا ما كان يمكن ولا ينتظر أن تتحدث به إلى
نفسها تلك الفتاة التى كان الناس يسمونها آمنة ، والتى تسمى
الآن سعاد لأنه اسم جميل يلائم المؤلف من حسن الاختيار
والتظرف فى الاسماء !

لقد كانت آمنة تلك فتاة بدوية انحدرت بها وبأختها امرأة
من أهل البادية ، أو من أهل هذا الريف المصرى الذى يشبه

البادية ، لأنه منبثّ في أطراف الأرض الخصبة مما يلي الصحراء الغربية أو مما يلي هذه الهضبات التي يسميها أهل مصر الوسطى بالجبل الغربي .

كانت زهرة أمّ آمنة وأختها هنادى امرأة بدويّة ريفيّة ، تقيم في قرية من هذه القرى المعلقة بهذه الهضاب والتي لا يستقر أهلها فيها إلّا رثيا يزيلهم عنها فوج من أفواج الأعراب الذين يقبلون من الصحراء ليتعلموا الاستقرار في الأرض والحياة في أطراف الريف ، ثم يدفعهم فوج آخر فإذا هم يمضون أمامهم مضياً بطيئاً ، ينتقلون في أناة ومهل من مكان إلى مكان ، وهم يتقدمون نحو الأرض المتحضرة دائماً حتى يبلغوا حدود البادية أو حدود هذا الريف المتبدّي ، وإذا هم على شاطئ القناة التي يسمونها البحر ويزعمون أن يوسف هو الذي احتفرها في الزمن القديم ، فإذا أتيح لهم أن يعبروا البحر ، فقليل منهم يحتفظ ببدائته وأكثرهم يفنى في طبقات الزرع ويضيع في عداد الفلاحين .

كانت زهرة أمّ هاتين الفتاتين تعيش مع زوجها الأعرابي وابنتيهما في قرية من هذه القرى ، قد اتخذت اسمها في أكبر الظن من بطن من بطون الأعراب أو قبيلة من قبائلهم ، فقد كانت تسمّى بنى وركان

وكان أهل القرية ومن حولها يميلون الألف قليلاً ويذهبون بها نحو الياء ، فما أسرع ما أصبح سبّة وعاراً يعاب به أهل القرية ، وكيف لا وقد أصبح اسمها بين الوركين . وما أسرع ما أصبح أهل القرية يستحون من اسم قريتهم ويكرهون الاتساب إليها ، ولا سيما حين كانت تدفعهم حاجة البيع والشراء إلى أن يهبطوا إلى المدن . فقد كان اسم قريتهم لا يذكر إلاّ أضحك الناس وأجرى على ألسنتهم مزاحاً كثيراً ثقیلاً ، محفظاً لنفس البدويّ الذي لم يتعود دعابة القرويين وأهل الحضر .

كانت زهرة تعيش مع زوجها وابنتها عيشة متواضعة هادئة ، فيها رخاء معتدل ، وفيها عزة بهذه الأسرة الضخمة ذات العدد الكثير التي كانت أمّنا تنسب إليها . ولكن أبانا لم يكن صاحب حشمة ووقار وسيرة حسنة ؛ إنما كان زير نساء يحب الدعابة والمجون ، ولا يتحرج مما يتحرج منه الرجل المستقيم ، وكانت له في القرية وفي القرى المجاورة خطوط كانت تخيف منه ، وتخيف عليه .

وكانت أمّنا أشقى الناس بهذه الخطوب تتأذى بها في ذات نفسها ، فكم حرقها الغيرة حين كان زوجها يغيب عنها اليوم الكامل أو الليلة الكاملة ، وتشفق منها على زوجها هذا الماكن .

فقد كانت تحبه على مجونه وفجوره ، وكانت تعلم أنه يهيم لنفسه
عداوات خطرة في كل مكان بالحاحه في المجون والفجور ، وتحاف
منها على حياة ابنتيها ومستقبلهما وآمالهما في العيش الهنيء .

وإنما لفي ما هي فيه من غيرة وإشفاق وفزع ذات ليلة ، إذ جاءها
النبا بأن زوجها قد صرع . ثم يستبين الأمر قليلا قليلا فإذا الرجل
قد ذهب ضحية لشهوة من شهواته الآثمة ، فليس له ثأر يطالب
به ، وليس من سبيل إلى استعداد السلطان على قاتليه ، وإنما هو
العار كل العار قد ألم بهذه المرأة البائسة وابنتيها التعستين ، وإذا
الأسرة كلها تضيق بهؤلاء النساء ، وتكره مكانهن منها ، وتنفيهن
عن الأرض ، وتزودهن بقليل من المال وكثير من الرحمة ، وتكرهن
على عبور البحر والاندفاع في أرض الريف يلتمس حياتهن فيها
يأبسات شقيات ، ليس لهن سند يعتمد عليه ، ولا ركن يأوين
إليه ؛ وإنما هي امرأة وحيدة لها حظ من جمال يطمع فيها
الناس ويغزى بها أصحاب المجون ، وصبيتان بأستان لا تكادان
تحسنان شيئا .

والخطوب تنتقل بهن من قرية إلى قرية ، ومن ضيعة إلى ضيعة ،
يلقين بعض اللين هنا ، ويلقين بعض الشدة هناك ، ولا تستقر بهن

الأرض في أى حال حتى ينتهين إلى هذه المدينة الواسعة ذات
الأطراف البعيدة والسكان الكثيرين ، والتي تشقها الطريق الحديدية
نصفين ، ويمضى فيها هذا الشيء المروع الخيف الغريب الذى يبعث
في الجو شرراً وناراً ، وصوتاً ضخماً عريضاً ، وصفيراً عالياً نحيفاً ،
والذى يسمونه القطار ، الذى يركبه الناس يستعينون به على أسفارهم
كما يستعين أهل البادية والريف بالإبل حيناً ، وبالحمير حيناً آخر ،
وبالأقدام في أكثر الأحيان .

هنالك في طرف من أطراف هذه المدينة ، استقرت هذه
المرأة مع الصبيتين ، لجأت إلى شيخ البلدة أو إلى شيخ
العزبة فأواها يوماً ، ثم ابتغى لها ولابنتيها حجرة ضيقة
حقيرة قد أقيمت من الطين ، فأسكنها فيها على أن
تدفع أجرها عشرة قروش كلما بدا الهلال ، ثم قال لها شيخ العزبة :
ما أكثر العمل هنا ، فالتسى حياتك وحياة ابنتيك في يموت
هؤلاء المترفين الذين لا يعملون في الزرع والحراث ، وإنما يعملون
في خدمة الحكومة ، منهم من يخدم في معامل السكر ، ومنهم من
يخدم في المركز ، ومنهم من يخدم في المحكمة الأهلية أو الشرعية ،
ومنهم مهندس الري ، ومنهم مهندس الطرق ؛ ثم عند
هؤلاء التجار الذين لا يتاجرون فيما تخرج الأرض من الحب ،

فهؤلاء فلاحون أو كالفلاحين ، وإنما يتاجرون في هذه الأمتعة والعروض التي لا تأتي من الريف ، ولا تصنع في المدينة وإنما تأتي من مصر ، هناك حيث الناس لا ينطقون كما ننطق ولا يعيشون كما نعيش .

عند هؤلاء التجار الذين يبيعون الأقمشة والأحذية والأثاث ، يجلبونها من مصر ويبيعونها في المدينة وفي القرى ، ويربحون منها الأموال الضخمة ، ويعيشون في بيوتهم عيشة السادة والأمراء . لا يأكلون على الأرض وإنما يأكلون على الموائد ، لا يأكلون الذرة وإنما يأكلون خبز الحنطة ، لا يأكلون في أطباق النحاس وإنما يأكلون في أطباق من الخزف . لا يسمحون لنساءهم أن يخرجن متبذلات ، وإنما يخرجن ملففات في هذه الثياب ، يتخذنها من الحرير ، وعلى وجوههن هذه البراقع الصفاق ، وعلى أنوفهن هذه القصبات من الذهب الخالص أو من الفضة المذهبة .

عند هؤلاء الموظفين ، وعند هؤلاء التجار تشتد الحاجة إلى الخدم ، والحياة في بيوتهم لينة ناعمة ، فالتسى لنفسك ولا بنتيك بعض العمل في بعض هذه البيوت .

قال ذلك شيخ العزبة ، ثم سمي لها أشخاصاً ، ووصف لها

بيوتاً ووعدنا بالمعونة . وانقضت أيام قليلة ، ولكنها ثقيلة كانت
أمنا تدور فيها بنفسها وبنا على البيوت تعرض نفسها ، وتعرضنا
للخدمة كما تعرض الإماء على السادة .

ولكن هذه الأيام لم تتصل ، وما أسرع ما استقرت كل واحدة
منا في بيت تعمل فيه النهار ، وتنام فيه الليل ، وولتقى آخر
الأسبوع فنقضى ليلة سعيدة رضية في حجرتنا تلك القدرة الحقيمة ،
قد حملت كل منا ما أتيح لها حمله من الطعام ، فنجتمع إلى
طعامنا ، ونتحدث عن أهلنا وقربتنا ، ثم عن ساداتنا وسيداتنا ،
حتى إذا تقدّم الليل أغرقنا في نوم هادئ لذيذ ، فإذا كان الصباح
تفرقنا إلى حيث نعمل في بيوت التجار والموظفين .

(٣)

وكنت أحسن الثلاث حظاً وأيمنهن طالعاً ، فقد قدّر لى أن
أخدم في بيت مأمور المركز ، وكانت خدمتى غريبة أول الأمر ،
ثقيلة على نفسى ، ولكنى لم ألبث أن أحببتها ووجدت فيها لذة
ومتاعاً . كلفت أن أصحب صبية من بنات المأمور كانت تقاربنى
في السن ولعلها كانت أكبر منى قليلاً .

كنت أرافقها في اللعب على ألا ألعب معها ، وأرافقها إلى
الكتّاب على ألا أتعلّم معها ، وأرافقها حين يأتي المعلم ليلقي عليها
الدرس قبل الغروب على ألا أتلقى الدرس معها .

كنت لها خادماً ألحظها من بعيد ، وأجيبها إلى ما تريد ، ولا
أشاركها في شيء مما تعمل . ولكن خديجة كانت حلوة النفس ،
رضيئة الخلق ، مشرقة الوجه دائماً ، مبتسمة الثغر دائماً ، وديعة
النفس ، رفيقة الحاشية ؛ فلم يطل ما كان بينها وبينى من البعد ،
وإنما أشركتني في لعبها ، واختصتني بأحاديثها وآثرتني بأسرارها ،
ولم تبخل عليّ حتى ببعض ما كانت أمّها تمنحها من الحلوى ، أو
من النقد لتشتري به الحلوى .

وما هي إلا أن تزول بيننا الكلفة ونصبح رفيقتين صديقتين ،
وسيدة البيت تنكر ذلك أول الأمر ، ولكنها تذعن له بعد
حين ؛ وإذا أنا أختلف مع الصبيّة إلى الكتّاب فأتعلم كما
تتعلم ، وأتلقى مع الصبيّة درس المعلم فأستفيد كما تستفيد .
وإذا ثياب الصبيّة تخلع عليّ فيقرب ما بينها وبينى من
اختلاف الزى ، واختلس نظرات إليها ، ثم أختلس نظرات إلى
المرأة فلا أكاد أحس بينها وبينى فرقاً ولا اختلافاً ، لولا أنها
كانت تتكلم لغة حلوة عذبة رقيقة هي لغة مصر ، وكنت أتكلم

لغة فجّة خشنة غليظة هي لغة أهل الريف من بنى وركان . وكنت أقلد في نفسى لغة خديجة فأحسنها وأجيدها ، ولكن حاولت غير مرة أن أجهر بهذا التقليد ، فردعت عن ذلك ردعاً عنيفاً ، ثم حاولت غير مرة أن أجهر بهذا التقليد حين كنت ألقى أمى وأختى فكانتا تضحكان منى ضحكاً يخزنى ، ويردنى إلى لغة الريف .

وأنفقت مع خديجة عاماً وعاماً لم ألق فيهما بأساً ولم أشك فيهما عناء ، وإنما عرفت فيهما الترف والنعيم ، وتعلمت فيهما غير قليل مما يعرفه الأغنياء ، وبعد فيهما الأمد بعداً شديداً بينى وبين أمى التى كانت تعمل فى بيت موظف من موظفى الدائرة السنية ، معتدل الحال متوسط العيش ، ولكنه أميل إلى حياة الريف ، وأحرص على تقاليد الفلاحين ؛ وبعد فيهما الأمد بينى وبين أختى التى كانت تعمل فى بيت مهندس الرى ، ذلك الشاب الرشيق الأنيق ذو الوجه الوسيم .

ذلك الشاب الذى كان يعيش وحيداً فى دار واسعة ، تحيط بها حديقة جميلة نضرة ولا يعيش معه فيها إلا خادم ريفى ، يحرس الدار ويعنى بالحديقة ، وإلاّ أختى تنظف الدار وتعنى بمتاع الشاب وكان الطعام يأتيه غزيراً موفوراً من مطعم فى المدينة ، فيصيب منه القليل ، ويترك أكثره لخادمية .

وكنت أرى أختي تشبّ مسرعةً ، ويستدير جسمها إستدارة
حسنة ، وتظهر عليها آثار النعمة وآيات من جمال ، ولكنها ظلت
كما أقبلت من ريفها المتبدّي ، ريفية بدوية لا تقرأ ولا تكتب
كما كنت أقرأ وأكتب ، ولا تحسن من أمور الترف شيئاً كما
كنت أحسن منها أشياء .

وفي ذات يوم التقينا آخر النهار في حجرتنا تلك الحقيرة
القدرة ، وكنت قد أخذت أكره هذا اللقاء ، وأضيق بهذه
الحجرة ، وأود لو أعفيت من هذا الاختلاف إليها كل أسبوع ،
ولو استطعت أن ألقى أمي وأختي من حين إلى حين حيث كانتا
تعملان . ولكن أئماً كانت صارمة حازمة ملحة في الصرامة
والحزم ، لا تغير من عاداتها شيئاً ، فكنا نلتقي آخر الأسبوع
دائماً ، وكانتا تضحكان وتنعمان بهذا اللقاء ، وكنت أتكاف معهما
الضحك وأتكلف معهما النعيم .

فلما كان ذلك اليوم ، والتقينا مع المساء لم أر بشراً ولا ابتساماً ،
ولم أر بهجة ولا اغتباطاً ، وإنما أحسست صمتاً عميقاً مريباً . ورأيت
وجهين كئيبين مظلّمين ، وخيل إلى أني أرى دموعاً تضطرب في
عيني أئماً ولا تستطيع أن تنحدر ، وهمت أن أسأل عما أرى .
فأعرضت أختي عني إعراضاً ، وأشارت إلى أمي ألا تسأل .

وقضينا وقتاً طويلاً ثقيلًا في هذا الهم الممض الذي لم أكن أفهمه ولا أتبين له مصدراً .

ثم انقطع هذا الصمت فجأةً بجملته واحدة لم أسمع بعدها شيئاً ، ولم أصنع بعدها شيئاً حتى كان الصباح ، صدرت هذه الجملة عن أمنا فوقعت في قلبي موقع الصاعقة ولقيتها أختي بوجوم غريب ، رفعت عينها إلى السماء ، ثم مضت فيما كانت فيه من صمت وحزن وإعراض .

قالت أمنا : إذا كان الغد فسنتحل عن هذه المدينة المشؤومة . لقد هممت حين سمعت هذه الجملة أن أنكر ، وأن أمتنع ، وأن أناقش وأجادل ، ولكن أمنا قالت هذه الجملة بصوت حزين ، بعيد محطم ، فلم أستطع أن أقول شيئاً ، ولا أن أظهر إلا الطاعة والإذعان .

ذكرت ما ألمّ بها من البأس طول حياتها مع ذلك الزوج الماجن الفاجر ، ذكرت ما حرق فؤادها من الغيرة ، وما آذى نفسها من الذل ، وما روع قلبها من الخوف .

ثم ذكرت ذلك الخطب الذي ألمّ بها فهدّها هدأ حين جاءها النبأ بأن زوجها قد صرع ، وبأنه قد صرع فيما لا يشرف به صريع .

ثم ذكرت هذه الآلام التي لا حد لها ، والتي غمرتها كما يغمر الماء الغريق ، حين أنكرتها الأسرة إنكاراً ، وحين أخرجتها من القرية ثم نفثها مع إبنيتها من الأرض .

ذكرت هذا فلم أستطع أن أنكر ، ولا أن أجادل ، ولم أزد على أن أظهرت الطاعة والإذعان ، والله يعلم أى ليلة قضيت ساهرة حائرة نائرة ، لا أطمئن إلى شيء ولا أسكن إلى رأى ، حتى إذا كان الصباح نهضت أمناً فأمرت أن نستعد للرحيل . قلت : أفلا نؤذن سادتنا بهذا الرحيل ؟ قالت فى صوت هادىء حزين : إن كان يؤذيك فراقهم فأقيمى فسرتحل نحن . قلت باكية : إن فراقهم ليؤذيني لكنى لن أستطيع أن أقيم ، وإنما هبطت معكم إلى هذه الأرض ، وقد كنت أحب أن أرى خديجة قبل الرحيل .

قالت : فإنك إن رأيتها لم تعودى إلينا . أليس أبوها مأمور المركز ؟ أفإن تعلقت بك وكرهت فراقك يخلى بينك وبين الرحيل ؟ قلت : إذن فلنرحل .

وما هى إلا ساعات حتى كانت أقدامنا قد تجاوزت بنا المدينة ، وانتقلت بنا من قرية إلى قرية نحو الغرب ، حتى إذا بلغ منا الأعياء أقمنا حيث كنا نستريح وننتظر الصباح .

(٤)

وينتهى إلى صوتك أيها الطائر العزيز ، وأنا أسبح في نوم
غير عميق ، وأرى من الأحلام صوراً قريبة مألوفة تمثل لى
خديجة وهى تلعب وتدعونى إلى أن أشاركها فى اللعب ، وتمثل
لى سيدة البيت وهى تأمر وتنهى ، وتصعد وتهبط ، وتذهب فى
تدبير بيتها وتجىء ، وتمثل لى المأمور وقد أقبل مع الظهر فاضطرب
لمقدمه البيت ، ثم عاد إلى هدوء يوشك أن يكون السكون ، ثم
فرغ أهل البيت كلهم لهذا الرجل يعنون به ، ويتوفرون على
خدمته ، كأنهم لم يخلقوا إلا له ، ولم يوقفوا إلا عليه .

وتمثل لى أموراً كثيرة مما كنت أراه فى ذلك العهد السعيد
القريب . ولكن صوت الطائر العزيز يبلغنى فيخرجنى من هذا
النوم الحلو إلى يقظة مؤلمة لا أكاد أشعر بها حتى أحسّ غلظ
المضجع وخشونة الفراش . وأين يقع هذا الوطاء الخشن من
الصوف قد بسط على الأرض الغليظة بسطاً ، من ذلك الفراش
الوثير الموطأ الذى كان يلقى لى غير بعيد من سرير خديجة فى تلك
الغرفة الجميلة المترفة من بيت المأمور ؟ !

لم أكد أحسّ خشونة هذا الوطاء ، وغلظ هذه الأرض ، حتى ذكرت أننا ننام عند مضيفنا العمدة على سطح من سطوح الدار ، لا يسترنا سقف وإنما تظللنا السماء ، وتكاد نغمرنا ظلمة الليل لولا هذا الشعاع الرقيق الذي كان يترقق فيها من ضوء القمر ، وقد تقدم به الشهر غير قليل .

نعم وذكرت كيف إتهينا إلى هذه القرية ، مجهودات مكدودات آخر النهار ، نجلس إلى شجرات من التوت ساعة وبعض ساعة نستريح ، لا تكاد واحدة منا تتحدث الى صاحبتها بشيء ، حتى إذا طال علينا الصمت ، وشقت علينا الراحة ، وثقل علينا التفكير ، قالت أمنا : ما أظن أننا نستطيع أن نفق الليل جالسات إلى هذا الشجر ، وما أرى أننا نستطيع أن نجد من يؤوينا أو يضيفنا في هذه القرية التي لا نعرف من أهلها أحداً ولا يعرفنا من أهلها أحد إلا العمدة ، فيجب أن يكون بيته مفتوحاً لكل غريب طارق بليل أو بنهار . ثم نهضت متثاقلة ونهضنا معها ، ومضت متباطئة ومضيفنا معها ، حتى انتهت الى دار العمدة لم تسأل عنها ولم تستدل عليها وإنما مضت إليها كأنما كانت تعرفها من قبل . هنالك رأينا جماعة من الناس

قد جلسوا أمام الدار على مصطبة عظيمة ، وتوسطهم رجل شيخ لا تكاد العين تقع عليه حتى تثق النفس بأنه عمدة القرية . فلما بلغنا مجلس القوم ولحظتنا أبصارهم ، تقدمت أمنا إلى الشيخ الوقور وقالت في صوت هادئ متزن : غريبات قد طرقت القرية في هذه الساعة المتأخرة من النهار فأونا يا عمدة حتى يسفر الصبح . قال الرجل : على الرحب والسعة . ثم دعا فأقبل إليه غلام من داخل الدار ، قال خذ هؤلاء النسوة إلى دار الضيافة ومُرّ بياكرام مشواهن .

ومضى الغلام ونحن نتبعه حتى انتهى بنا إلى دار الضيافة ، فإذا ببناء متواضع قد انبسط أمامه فناء عظيم فأدخلنا إلى بعض حجراته وقيل لنا أقمن هنا حتى يأتىكن الطعام .

وما هي إلا ساعة أو بعض ساعة حتى اتصلنا بمن في الدار من أضياف وخدم ، قد اختلط بعضهن ببعض فكأنهن جميعاً أصحاب البيت ، ثم اتصلت الأحاديث واختلطنا بمن وجدنا فأمسينا وكأننا منهن . وكان العشاء الغليظ ، وكان السمر المضطرب المختلط ، ثم كان التفرق إلى المضاجع ، فمنا من أثر الهواء الطلق فاتخذ مضجعه على سطح الدار أو في فنائها ، ومنا من أشفق من ذلك فأوى إلى الغرفات والحجرات .

وقد رغبت هنادى فى السطح وشاركتها فى هذه الرغبة ،
ومضينا معاً ننتظر النوم . وكنت أحدث نفسى بأن هذه الخلوة إلى
أختى قد تكشف لى عن بعض ما يخفى على من أمر .

ولكنى لم أكّد أجلس إليها وأحاول أن أصل الحديث بينها وبينى
حتى لقيتنى بذلك الإعراض المثلوج الذى لقيتنى به أمس ، ثم أشاحت
بوجهها ومضت فى صمتها ، وأقت أنا إلى جانبها حائرة لا أدرى
كيف أقول .

ثم استلقيت وأرسلت نفسى فى فضاء هذا الليل العريض تلتمس
ما يلهيها عن هذه الموم الغامضة المستغلة التى لم أكن أعرف منها
إلا ثقلها ، ولكن هذه النفس لم تكد تمضى فى ظلمة الليل حتى أدركها
موج من هذا النوم اليسير فأخذت تسبح فيه ، ولبثت كذلك حتى
أخرجها منه صوت هذا الطائر العزيز .

ذكرت هذا كله حين استيقظت ومرّت بى خواطره مسرعة بينما
كنت أحاول أن أتبين أين أنا ، وكيف انتهيت إلى حيث أنا ،
وبينما كنت أفتح عينيّ وأديرهما من حولى كأنما أريد أن أستكمل
شخصى حين أتبين حقيقة المكان الذى أنا فيه ، وبينما كنت أمدّ
ذراعى عن يمين وشمال ، وأمدّ ساقى كأنما أريد أن أستمدّ لجسمى

ما أفقده هذا النوم اليسير من نشاط ، وكأنما كنت أمحو عنه ما تركت فيه هذه الأرض الغليظة من ألم .

ثم استكمل شعورى وأجد نفسى كما كنت قبل أن يغمرنى النوم ، وأحسَّ كأنَّ شخصاً قائماً غير بعيد منى فأتبين هذا الشخص ، فإذا هى أختى قائمة جامدة لا تكاد تأتى حركة ، ولا تكاد تحس شيئاً وكأنها لا تكاد تفكر فى شىء .

إنما هو شخص مائل ذاهل قد قام فى شىء من الجمود المؤلم ورفع رأسه إلى السماء كأنه كان ينتظر منها شيئاً ، وكأنما أبطأ عليه ما كان ينتظر منها فجمد فى مكانه لا يستطيع منه انتقلاً .

وأنت أيها الطائر العزيز تلقى فى الليل العريض المظلم نداءك البعيد العذب فيصل إلى نفسى فيحييها ، ويوقظ فيها الذكري ويبعث فيها الأمل ، ويشبع النشاط . وأختى مائلة ذاهلة كأن صوتك لا يبلغها ولا ينتهى إليها . ومع ذلك فما عهدتها صمًا ، وما عهدتها تحسَّ الحزن أو تجيد الاكتئاب ، إنما أعرفها فرحةً مرحة ، تحب الضحك ولا تحتاج إلى أن تدفع إليه ، وإنما تحتاج إلى أن تدفع عنه . أين هى ؟ ما بالها جامدة هامة لا تسمع ولا تحس ؟ لعلها قد أرسلت

نفسها كما أرسلت نفسى تسبح فى هذا الليل العريض فأبعدت نفسها
فى المسعى وتركت جسمها ماثلاً بلا روح !!

نهضت من مكانى فى هدوء ، وسعيت إليها فى أنأة ، حتى إذا
بلغتها مسست كتفها مساً رقيقاً ، فإذا رعشة عنيفة تجرى مسرعةً فى
جسمها كأنها رعشة الكهرباء ، وإذا هى تجفل كالخائفة ، ثم تأمن
وتسكن حين تسمع صوتى وأنا أقول لها : لا تراعى ، فأنا أختك
آمنة ، ما وقوفك الآن على هذا النحو ماثلة ، ذاهبة النفس كأنك
الضنم ؟ ماذا تنتظرين من الليل ، وماذا تبتغين من السماء ؟ قالت
وقد هوت إلى الأرض كأنها البناء المتهدم وصوتها مضطرب ممزق ،
يتمزق له قلبى كلما ذكرته : لا أنتظر شيئاً ولا أبتغى شيئاً . . .

ثم عادت الرعشة السريعة فهزت جسمها هزاً ، ثم انهمرت دموعها
انهماراً ، ثم احتبس صوتها فإذا هى تضطرب اضطراباً عنيفاً ، وتسفح
دمعاً غزيراً ، وترسل أنفاساً عنيفة متقطعة ؛ وأنا أجثوا إلى جانبها وأضمها
إلىّ وأقبلها ، وأحاول أن أرد إليها الهدوء والأمن وسكون النفس ما وسعنى
ذلك ، حتى إذا مضى وقت غير قصير سكن جسمها بعد اضطراب ، وانطلقت
أنفاسى بعد احتباس ، ومضت دموعها تنهمر ، وآوت إلى ذراعىّ كأنها
الطفل قد استسلم إلى أمه الرؤوم ، واطمأن رأسها إلى كتفى ، وقضت كذلك

لحظة ما نسيت ولن أنسى عذوبتها . وما أرى إلا أنها أحسّت هذه العذوبة فقد ثابت إليها نفسها ، وراجعها رشدها ، ولبثت حيث كانت حتى بعد أن سكنت دموعها كأنما أعجبها مكانها مني ، وكأنما وجدت شيئاً طالما كانت تتوق إليه فلا تجده ، ولا تظفر به ؛ ثم سمعتها تقول بصوت خافت بعيد : لقد كنت أحب أن أكون بهذا المكان من أمي لا منك أنت أيتها الأخت الصغيرة ، فإنك لم تخلقى لتدلى أختك وتمنحها مثل هذا العطف والحنان .

يا لك من ليل مظلم عريض تضطرب فيه هذه الأضواء الضئيلة البعيدة التي تفتى ، ويبسط عليه هذا السكون الخفيف ظلالاً لا حدّ له ، ثم يندفع فيه من حين إلى حين صوت هذا الطائر العزيز كأنه سهم مضى ينطلق في بحر من الظلمات ! !

كل شيء هادئ مطمئن من حولنا حتى نفس هذه الفتاة التي كانت ثائرة منذ لحظة فقد اطمأنت وسكنت ، وانتهت إلى حال تشبه النوم ، وإنى لأخذ نفسي بالهدوء وأكرها على الاطمئنان ، وألزم جسمي السكون في هذا الوضع الذي هو عليه ليبقى هذا الرأس البائس الحزون مستريحاً إلى هذه الكتف الصغيرة الحنون .

ولكن الفتاة ترفع رأسها وتستوى جالسة ثم تبسط ذراعها فتطوق

بها عنقي ثم تضمني إليها ، ثم تقبلني ثم تقول : إياك أن تفعل
ما فعلت أو تخدعي كما خدعت أو تدفعي إلى مثل ما دفعت إليه . إنك
إن تفعل تری نفسك في مثل ما ترينني فيه الآن من الجزع والهلع ،
ومن اليأس حتى من رحمة الله ، ومن القنوط حتى من روح الله الذي
لا يقنط منه إلا الكافرون .

قلت : وماذا فعلت إذن ؟ وما هذا الشر الذي دفعت إليه ؟ وما هذا
اليأس الذي تغرقين فيه ؟ وما هذا الهم الثقيل الذي صب علينا صباً
ولم نكن ننتظره ولا نتوقع له مقدماً ؟ قالت وهي تقبلني : لست
أدرى أأحدثك بذلك أم أكتمك إياه ؟ إني لأعتدى على سنك
أن تحدثت إليك ، وإني لأعرضك لمثل ما أنا فيه إن كتمتك الحديث .

قلت : فإن صمتك لن يغني الآن شيئاً ، فقد عرفت أن هماً
ثقيلاً ألم بنا ، وأن حزناً ممضاً يمزق قلبك وقلب أمنا ، وأن يأساً
مهلكاً قد استأثر بنفسك استئثاراً ، وما أنا بمقلعة عن السؤال
والبحث والتفكير حتى أعلم علم هذا كله . وإني لحقاء إن قبلت
أن أنزع من ذلك العيش الناعم السعيد الذي كنت أستمتع به
دون أن أعلم لماذا أنزع منه نزاعاً ، فحدثيني حديثك فمن يدرى
لعل فيه لي عظةً ولك عزاء .

(٥)

وارتفع الضحى من الغد فإذا ضوءه المتدفق يغمر فتاتين معتنقتين
قد أغرقتا فى نوم عميق ، لا يوقظهما منه حرّ الشمس المحرقة ،
ولا مسّ الأرض الغليظة ، ولا اضطراب الدواجن من حولهما وهن
يزدحمن على ما ينثر لهن من حب ، ويختصمن فيما يصبّ لهن فى
الصحاف من ماء ، ويخفقن بأجنحتهن فى الهواء مقبلات مدبرات ،
واقعات طائرات ، يتنادين ويتناجين ويتناغين ، قد ملأهن إشراق
الصباح مرحاً ، فلأن الجو حياة ونشاطاً وحباً .

وكأن هذا كله كان يدعونى دعاءً ملحاً من أعماق النوم الذى
كنت مغرقة فيه ، ويدنينى قليلاً قليلاً من اليقظة ، وإذا أنا
ألتقى الحياة دون أن أتمثل الحياة ، وأستقبل النشاط دون أن أشعر
بالنشاط ؛ ثم أحسّ كأن شيئاً خفيفاً رشيقاً قد مسّ كتفى مسّاً
يسيراً فأنتبه ، ولا أكاد أفتح عيني وآتى بعض الحركة حتى أرى
حمامة مذعورة قد ارتفعت غير مسرعة فى الارتفاع ، ولم تكد تطير
حتى وقعت فى رشاقة وظرف غير بعيد ، فأستوى جالسةً وألقى نظرة
إلى أختى وقد ثاب إلى حديثنا كله مرةً واحدة فملأ قلبى إشفاقاً

وحباً وحرزاً . وتقع عيني عليها وقد استراح جسمها المتعب ، واستقر قلبها المضطرب ، وهذأت نفسها الثائرة ، وذادت الراحة عن وجهها ذلك الغشاء المظلم الكئيب ، فبدت نضرتة حلوة مشرقة شائقة كأنها نضرة الزهر . وقد تفتّح لضوء الصبح وقطر الندى ، وإذا في هذا الوجه الهادئ النضر جمال للعين ، وفتنة للعقل ، وممتعة للقلب ، وإذا أنا أنظر إليه فلا أكاد أحول عيني عنه ، مستريحة معجبة مكبرة ، ولكني أسمع من ورأى صوتاً خافتاً يملؤه الحنان والحزن ويقول كأنه يتحدث إلى : أنظري . . . أنظري . . . وأطيلي النظر ! ألسن ترينها حسناء رائعة الحسن ؟

فألتفت وإذا أمنا جالسة تنظر إلى الوجه الذي أنظر إليه ، وما أشك في أن نفسها كانت تستعرض خواطر كالتى تختلف على نفسى ، وفي أن قلبها كان يتأثر بعواطف كتلك التى كانت تملأ قلبي ، فأسألهما : ما جلوسك هنا في هذه الشمس المحرقة ؟ فتجيب : لقد كنت أملاً عيني بمنظر كما الجميل . . . ثم تنهض مولية في شئ من الإسراع وهى تعالّب شجى يريد أن ينفجر ، وتحرص هى على أن يظل دفيناً . وأقيم أنا في مكاني ذاهلة أو كالذاهلة ، أنظر إلى أختى التى لم تستيقظ بعد ، وإلى أمى التى تسرع مولية تريد أن تهبط إلى

أسفل الدار ، وأفكر في هذه الفتاة اليائسة وفي هذه المرأة البائسة ،
وأسأل نفسي أيهما أحق بالعطف وأجدر بالثناء ؟ وأسأل نفسي
أيهما أحق منى بالمعونة والنصر وبالتعزية والتسلية ؟ فكلاهما في
حاجة إلى العون ، وكلاهما في حاجة إلى العزاء ...

هذه الفتاة البريئة لم تعرف بوؤس النفس قبل الآن وهي تستقبل
الشقاء الآن مظالمًا قائمًا ثقيلًا ملحًا لم تدعه ولم تسع إليه ، وإنما
أكرهت عليه إكراهًا ، وأغريت به إغراء ، ثم دفعت إليه دفعًا ،
وهي الآن غريق مشرفة على الموت ، تريد أن تقاوم وتجاهد الموج
ما وسعها الجهاد لا تجد ما تعتمد عليه أو تتعلق به .

وإنها لفي ذلك إذ ساق القدر إليها من أختها الصغيرة ثمامة
تستطيع أن تستمسك بها وتستبق فضلًا من أمل ، وحظًا من رجاء .
وهذه المرأة التي لم تبلغ الشيخوخة بعد ولكنها قد فرضت على
نفسها حياة الشيوخ ، حرمان متصل ، وانصراف عن كل ما في
الحياة من لذة ، وإعراض عن كل ما في الحياة من متاع ،
واكتفاء بما يقيم الأود ولا يدنى من الموت ، ونظر متصل إلى
هذا الماضي القريب الذي يملؤه الحزن ويفعمه الأسى وتضطرم فيه
هذه النيران التي تحرق قلب المرأة حين تحب ، فلا يسعفها الحب

ولا تلقى ممن يحب إلا خيانة وخذاعاً وغدرا .

وإنها لفي ذلك محزونةً لأمسها ، يأساً من غدها ، معرضة عن يومها ، وإذا الحياة تتكشف لها عن خطب جديد ثقيل ، ليس أقلّ نكراً ولا أهون أمراً من تلك الخطوب التي بلتها في حياتها الماضية ، فهي تنظر وراءها فلا ترى إلا ظلمة ، وتنظر أمامها فلا ترى إلا ظلمة ، وتنظر عن يمين وشمال فلا تجد عوناً ولا نصيراً .

لقد أنكرتها الأسرة وجفأها الأهل ، ونفتها القرية ، وأصبحت وحيدة تعول ابنتين بأستين ، وإذا هي تتكبد في إحداها لأمر لا تعلمه ، وقضاء لم تكن تنتظره . كلتاها بأسة ، وكلتاها شقية ، وكلتاها خليقة أن تجد من الأخرى ما تحتاج إليه من هذا كله ، ولكن هذه النكبة الملمة ، والكارثة الملحة ، قد باعدت بينهما . فالأمّ محنقة على إبنتها ، والفتاة نافرة من أمّها ، لا يتصل بينهما حديث ، ولا تثبت عين إحداها في عين الأخرى ، إنما تتفاهمان بالإشارة أو الجمجمة ، فإذا التقت أعينهما فما أسرع الإطراق إلى رأسيهما . . ثم ما أسرع ما تدعو حاجة مرتجلة منتحلة إحداها إلى أن تولّى مدبرة لئلا ينأى عن صاحبها فلا يكون بينهما نظر ولا حديث .

هل أستطيع أن أردّ ما بينهما إلى طبيعة الضلة بين الأم البائسة والابنة المحزونة ؟ بل هل أستطيع أن أعيد الأمر بيننا إلى شيء مما كان عليه قبل هذه الكارثة من هذه المودة السهلة التي لا تكلف فيها ولا تصنع ولا رياء ؟ بل هل أستطيع قبل كل شيء أن أعلم أين نحن وإلى أين نمضي ، وماذا تريد بنا أمنا هذه التي تأمر وتنهى في لهجة حازمة صارمة وإيجاز مقتصد لا يقبل حواراً ولا جدالاً ؟ ذلك أجدر أن أفكر فيه ، وأحرى أن أسعى إليه . فلا تبعن أُمّي إذن ولا تلتظفن لها ، ولأسألنها في أناة ومودة ورفق حتى أعلم علمها ، ثم أنظر بعد ذلك فيما آتى ، أو فيما يمكن أن تأتى من الأمر .

كل هذه المعاني تضطرب في نفسى وعينى ، لا تكاد تفارق هذا الوجه الهادى الذى يدلّ هدوؤه على أن أختى ما زالت في تلك الأعماق البعيدة التي كنت فيها منذ حين ، لم يبلغها ضوء الشمس وحرّها ، ولم يؤذها مسّ الأرض وغلظها ، ولم يصل إليها اضطراب الدواجن وما تملأ به الجو من نشاط ومرح وصياح .

فأنهض متثاقلة وأسعى مترققة حتى أهبط إلى فناء الدار ألتمس أمنا وما كان أيسر الوصول إليها ، فقد اعتزلت غير بعيد من

السلم وجلست منحنيةً تعبت في الأرض بأصابعها عبثاً يدلّ على شيء من الذهول كأنما كانت تناجيهما ثقيلًا أو تتبع خاطراً بعيداً ؛ حتى إذا بلغت مسست رأسها بيدي وسألتها مداعبة : ما هذه اللعبة التي تلعبين ؟ وهلا دعوتني لأكون شريكك في اللعب فإن مثل هذه اللعبة لا تستقيم إذا انفردت بها لاعبة واحدة . . .

قالت وقد رفعت إلى رأساً حزيناً : أترينني ألعب يا ابنتي ؟ قلت : فما عسى أن تفعل بهذا التراب الذي تذهب فيه أصابعك وتجيء ؟ ثم أنهضتها فلم تمتنع على ، ومضيت بها إلى ناحية من الفناء لا يكثر فيها اضطراب الأضياف ، ونظرت إليها فإذا هي تنقاد إلى مستلحة ، وإذا حزنها العميق وحنانها القوي قد فاضا على وجهها الشاحب فألقيا عليه مثل وداعة الأطفال .

هنالك أحسست من نفسى قوة ، وشعرت كأنى أنا الأم زهرة وكأنها هي الفتاة آمنة ، فاتخذت صوتها ولهجتها وألقت عليها في غير تكلف هذه الأسئلة : ماذا تريدان ؟ وماذا تصنعين ؟ وأين تذهبين بنا ؟ قالت وقد انحدرت دموعها : لا أصنع شيئاً ، ولا أدرى أين أذهب بكما ، وإنما أريد أن أنأى بكما عن هذه المدينة الموبوءة . قلت :

ولكن إلى أين ؟ قالت : سنرى . قلت : ومتى نرى ؟ قالت :
لا أدرى . قلت : فقد ينبغي أن تدرى فما يحسن بثلاث من
النساء أن يهمن في الريف على وجوههن ، تلفظهن قرية وتتلقاهن
قرية أخرى ، يأويهن هذا العمدة وقد يردّهن ذاك . قالت فبماذا
تشيرين ؟ قلت : أما إذ كرهت المدينة وباعدت بيننا وبين تلك
الدور التي كنا نحيا فيها حياة أمن وهدوء . .

وهنا أخذتها رعدة قوية ، وقالت في غضب وحدة : أي أمن
وأي هدوء ؟ إنك إذن لم تعلمي . . قلت بل علمت . قالت : وقد اجتراءت
البائسة على أن تلقى إليك هذا الحديث ؟ ألم يكفها ما اقترفت من
الإثم ، وما انغمست فيه من الدنس حتى أرادت أن تكوني لها شريكة ؟ !
قلت في رفق : دعيها وما هي فيه الآن وعودي بنا إلى ما كنا فيه .

أما إذ كرهت المدينة وباعدت بيننا وبين ما كنا نستعين به
على الحياة من عمل فإني أرى أن نلتمس العمل في قرية من هذه
القرى عند غنى من هؤلاء الأغنياء . قالت : لقد فكرت في هذا
ولكني أرى أن ليس إليه من سبيل ، فإن المرأة لا تستطيع أن
تعيش ، ولا أن تأمن ، ولا أن تستقيم أمورها إذا لم يحمها أب
أو أخ أو زوج . قلت : فليس لنا أب ولا أخ ولا زوج . قالت :

بل لنا من يحمينا ، وقريتنا التي نفينا عنها أحقّ بنا ونحن أجدر
أن نعود إليها ، ولئن بلغناها ليعلمنّ الذين جفونا ونفونا أن من العار
أن تنفى الأسر نساءها وكرامتها ، فالمرأة عورة يجب أن تستر ،
وحرمة يجب أن ترعى ، وعرض يجب أن يصاب .

قلت : فأنت تريدان إذن أن تعودى إلى تلك الحياة البائسة
التعسة التي كنت تحمينها بين قوم لا ينظرون إليك إلا شذرا ، ولا
يعطفون عليك إلا كرها ، ولا يتحدثون عنك إلا فى سخرية
ورحمة شر من السخرية ؟ ! قالت : نعم فكل هذا أهون مما لقينا ،
وكل هذا أهون مما يمكن أن نلقى إن مضينا فى هذه الحياة الهائلة
التي لم نخلق لها ولم تخلق لنا . ولقد انقطعت تلك الأسباب التي
كانت تدعو إلى جفاء الأسرة وإعراض ذوى القربى ، وسخر
الأعداء وورثاء الأصدقاء . لقد انقطعت تلك الأسباب وبعد بها
العهد ، ولئن بلغنا قريتنا ليزكرنّ الناس بعض أمرنا حيناً من
الدهر ، ثم لا يلبثون أن ينسوه وأن ينسوننا ، ولا نلبث نحن أن
ننغمس فى حياتنا الأولى ونعيش بين أهلنا بأئسات ، ولكن آمنا .
قلت : وتريدان أن نبلغ هذه القرية ساعيات على أقدامنا ،
نتنقل من ريف إلى ريف ، ونستضيف هذا يوماً وذاك ليلة ،

وقد أعجبتنا بالرحيل عن كل أمرنا فتركنا متاعنا وما اجتمع لنا
عند من كنا نعمل عندهم؟ قالت : سترين فلن ينالكما جهد ولن
يمس حياءكما أذى ، سنقيم هنا حتى يأتى من يحملنا إلى قريتنا
ويبلغنا مأمننا بين الأهل والأصدقاء .

قلت : وكيف يستقيم لنا هذا؟ قالت : لقد علمت منذ أصبحت
أن اليوم فى القرية يوم سوق يجتمع فيه الناس من أطراف الريف ،
فلاسعين بين الناس والبائعات فلن أعدم بينهم رجلا أو امرأة من
أهل قريتنا أو من أهل قرية مجاورة فلاأحملنه رسالة إلى أهلنا ولن
يتم الأسبوع حتى يكون أخى هنا قد أقبل يحملنا إلى حيث ينبغي
أن نعيش .

وهمت أن أمضى معها فى الحديث ولكن حركة عنيفة قطعت
علينا ما كنا فيه . فهؤلاء نسوة قد أقبلن يحملن الجفان والأسفاط
ويدعون إلى الطعام .

ويسمع الأضياف دعاءهن ، ويرى الأضياف مقدمهن فيستجبن
للدعاء ، ويسرعن إلى الطعام ، ولا بدّ من أن يستجيب كما
استجبنا ، ومن أن نسرع كما أسرعنا ، لا بدّ من أن أضعد فأنبه

أختى هذه التى لا تريد أن تقيق من نومها الطويل بعد أن كانت لا تريد أن تخرج من أرقها الطويل .
فأصعد ولكنى لا أكاد أبلغ آخر السلم حتى أراها قائمةً ساهمة حيث رأيتها من الليل حين أيقظنى طائرى العزيز .

(٦)

وأقبل من فى الدار من النساء ومن انضم إليهن من نساء القرية البائسات على الطعام مسرعات يتزاحن بالمناكب ، ويتدافعن بالأيدى ، ويتزاجرن باللفظ واللفظ ، ويرتفع فى أثناء ذلك منهن دعاء لصاحب الدار أن يوثق الله حزامه ، ويعلى مقامه ، ويصرف عنه الداء ، وينصره على الأعداء .

ونحن نسعى وجلات خجلات ، يدفعنا الجوع والأدب ، ويمسكنا الحياء والاحتشام ، حتى إذا استدارت الجماعة حول الجفان قلَّ الكلام ، وقرَّت الأجسام ، واضطربت الأيدى وعملت الأفواه .
وأنا أرى هذا كله فيؤذنى منظره ، ويقع من نفسى موقعاً أليماً . ما أبعد ما بين هذه الأيدى الغليظة الخشنة قد تقلص جلدها وتقبَّض ، وهى تعوص بما فيها من الخبز غوصاً فى القصاع فتصيب منها ما تستطيع ، وما بين تلك الأيدى الرقيقة الرفيقة الناعمة المترفة

التي لم تكن تمتدّ إلى الأطباق إلا هيئنة ، والتي لم تكن تمسّ
ما في الأطباق إلا بهذه الأدوات التي يعرفها أهل المدن خاصة بل
يعرفها المترفون من أهل المدن خاصة !

ما أبعد ما بين هذه الأفواه الفاغرة التي يلقي فيها الطعام إلقاءً
على عجل فلا يكاد يستقر فيها حتى تزدرد الحلق ، وكأن الطبيعة
لم تودع هذه الأفواه حسّاً تجذب به لذة ما تأكل وما تشرب ، وإنما
اتخذتها طريقاً إلى الحلق ثم إلى الأجواف ، وما بين تلك الأفواه
الصغيرة الضعيفة التي لم تكن تفتح إلا بمقدار ، والتي لا تلتهم
ولا تلتقم ولا تنتهي بما فيها إلى حلق تزدرد ، وإنما تطيل المضغ
وتستمع بما يمسها من الألوان ، ثم تنتهي به على مهل إلى حلق
تسيغه في أناة ورفق ، كأنما الأكل فن من الفنون لا بدّ فيه
من الروية واصطناع المهل والأناة !!

ما أبعد ما بين هذه الجماعة التي حشرنا فيها حشراً في فناء هذه
الدار ، وما بين تلك الأسرة التي كنت أعمل عندها وأجد في خدمتها
حين تجلس إلى المائدة لذة ومتاعاً ، يعدلان بل يريان على ما كنت أجد
من اللذة والمتاع حين أجلس إلى طعامي مع رفاقي من الخدم بعد
أن يتفرق سادتنا عن مائدتهم !

أين أجد القدرة على أن أدفع يدي مع هذه الأيدي وأحرك
فمى مع هذه الأفواه؟! إنما أنا جالسة بين هؤلاء النساء أنظر إليهن
ضيقَةً بهن ، وأتلهى عن الجوع بهذا الخبز الرقيق المستدير الواسع
أحطمه بين يدي وأصيب منه قليلاً بين حين وحين . وأمّا تصيب
من الطعام فى قصد واعتدال ، قد حال الحزن والحياء بينها وبين
إرضاء حاجتها إلى الغذاء . وأختى واجمة ساهمة كأنها فى أرض غير
هذه الأرض ، وفى حياة غير هذه الحياة .

ثم تفرغ الجفان ويتفرق النساء جماعات ، ونهيم نحن أن ننتحى ناحية ،
ولكننا لا نكاد نبليغ من ذلك ما نريد حتى يدركنا نسوة ثلاث
يجلسن حيث نجلس ويأينن إلا أن يأخذن معنا فى الحديث .
تقول إحداهن وكانت امرأة تختصم على وجهها أواخر الشباب
وأوائل الشيخوخة ، ويحتفظ صوتها كما تحتفظ حركاتها بنشاط فيه
عذوبة مغرية وميل إلى الفكاهة ظاهرة : ما رأيت كالיום نسوة
يستغنين بالأعين والآذان عن الأيدي والأفواه وعن الألسنة
والحلق والأجواف .

ما أنتن أولاء بيننا منذ أمس ، وما سمعنا لكنّ صوتاً ولا عرفنا
من أمركن شيئاً؟ وما أنتن أولاء تستدرن معنا حول الطعام فلا

تكدن تمددن إليه يداً ولا تكدن تصبن منه خطأً ، كأنما يغذيكن
النظر إلى الطاعمات وهن يلتقمن ويلتهمن ويزدردن ، وكأنما يرضى
حاجتكن إلى الحديث الاستماع للمتحدثات ! ثم أرسلت ضحكة
سمعها من غير شك أبعد من فى الدار مكاناً وسمعها من غير شك
من كان خارج الدار ، وانتشر معها فى الجو استخفاف واستهتار
ودعابة ودعاء إلى المجون ، حتى إذا فرغت من ضحكها وجرت
الهواء إلى جوفها جرّاً هو أشبه بالشهيق المثير قالت : أهذا شأنكن
بالقياس إلى كل ما تحتاج إليه النساء من لذة وراحة ورضى ؟
إنكن إذن لبأسات ..

قالت هذا ثم التفتت إلى أمّنا فألقت عليها نظرة قوية تريد
أن تثيرها إلى الحديث وتكرهها على الجواب ، ولكن أمّنا لم تنطق
بحرف ولم تعرف كيف تلقى هذا السيل المنهمر من اللفظ ، وإنما انعقد
لسانها انعقاداً ، وظهر على وجهها اضطراب شديد ، ولم تثبت
عينها لعينى هذه المرأة الجزئية اللعوب فغضتّهما ، وأطرقت برأسها إلى
الأرض كأنها الطفل الصغير يلحّ عليه الكبار عن بعض أمره فيمنعه
الحياء من أن يجيب .

هنالك التفتت هذه المرأة إلى وقالّت : هذه أمّك صامتة لا تقول ،
وهذه أختك واجدة لا أمل فى أن تفهم ولا فى أن تجيب ،
(٤)

فتكلمى أنت فإني أرى فى عينيك جرأة وعلى وجهك شيئاً يشبه
 القحمة ، وما أظن أن فى عينيك ملحاً . . . ! قولى من أنتن ومن
 أين تقبلن ؟ وما خطبكـن وما إعراضكـن عن الطعام ؟ وما إثـاركن
 للصمت ؟ قلت ولم أستطع أن أدفع الضحك عن نفسى أمام هذا
 الهجوم المفاجئ الغريب ، وأمام إغراق هاتين المرأتين الآخرين
 فى الضحك ، وإغراق أمنا فى الصمت وإغراق أختى فى الوجوم :
 وأنت من تكونين ومن أين تقبلين ؟ وما أنت وسؤلك إيانا
 وإلحاحك علينا ؟

قالت مسرعةً تتحدث إلى صاحبتـيها : ألم أقل لكما أنها « قارحة »
 ليس فى عينها ملح ، وأنها هى التى ستسمع لى وتردّ على ؟ ثم
 التفتت إلى وقالت : تحقيق . . . أسمعين ؟ تحقيق . . . أنا
 مكلفة أن أخضعك له ، ستعرفين من أنا ، وستعلمين أتى
 تعودت التحقيق مع النساء ومع الرجال أحياناً والإلحاح فى السؤال
 على أولئك وهؤلاء . . . ثم أرسلت ضحكها ورجعت شهيقها ، وسألتنى
 ملحّةً من نكون ومن أين نقبل ؟ !

وما زالت هذه المرأة تداعبنا وتلاعبنا عنيفةً حيناً ولينةً حيناً

آخر ، جادةً حيناً وهازلةً في أكثر الأحيان ، وصاحبتاها تعينانها على بعض ما تريد من ذلك ، حتى أنسنا إليهن وتحدثنا معهن شطراً من الضحى ، وعرفت من أمرهن ما رغبتى فى ألا تنقطع الصلة بينى وبينهن ما أقننا فى هذه الدار . وكن جميعاً من أهل المدينة التى أقبلنا منها ، قد بلغن هذه القرية معاً قبل أن نبلغها نحن بساعات ، أقبلن راكبات وأقبلن نحن سعيّاً على أقدامنا ، فأما هذه الحققة التى كانت تسأل وتلحّ فى السؤال ، وتمازح وتغلو فى المزاح ، فكانت امرأة عظيمة الخطر عرفت من أمرها فيما بعد ما كنت أجهل ، وتبينت أن اسمها كان شائعاً ذائعاً على جميع الألسنة وفى جميع الأنحاء لا فى المدينة وحدها بل فى كثير مما يحيط بها من القرى والعزب والضياع .

كان اسمها زنوبة وكان تاريخها حافلاً بالخطوب والأحداث ، كان شبابها مغامرة كله وفتنة لنفسها ولكثير من الناس . كانت تجيد الرقص وتفتن به شباب المدينة ، وتفتن هؤلاء الشباب الذين كانوا يفتنون على المدينة فى فصل الشتاء ليستغلوا فى معمل السكر . وكانت تفيد من فصل الشتاء لهواً كثيراً ومالاً كثيراً وصوتاً بعيداً . حتى إذا تولى عنها الشباب شيئاً وأخذت تدنو من الكهولة قليلاً

قليلاً آثرت ظاهراً من القصد ، وتكلّفت شيئاً من الاعتدال ،
وأسدلت على مجونها ودعابتها ستاراً رقيقاً تستطيع بعض الأبصار
أن تنفذ إلى ما وراءه فتدل أصحابها على ما ينتغون .

ثم اتصلت بالشرطة ورؤسائها في المدينة . وكانت وسيلتها إلى هذا
الاتصال معرقها للشبان ، ومخالطتها للرجال ، وانسلاها إلى بعض الدور
واستماعها لكثير مما يلقي من الحديث ، وعلمها بكثير مما يقع من
الحوادث ، ويلم من الخطوب . فكانت عينا من عيون الشرطة
تنفذ إلى كثير جداً مما لا تنفذ إليه عيون الرجال ، وكانت تفيد
من ذلك مالاً وتكسب من ذلك هيبة ، فكان الناس يخافونها
ويتلطفون لها . وكانت الشرطة تستعين بها استعانة خاصة خصبة
حين يصرع صريع بالليل ، ويبحث المأمور وأعوانه عن القاتل فلا
يظفرون به ، هنالك كانت تنقل إليهم ما تسمع من الأحاديث
في بعض أندية الشباب وفي داخل كثير من البيوت ، وحين
يعتدى اللصوص على دار من الدور ثم تعمى آثارهم وأخبارهم على
الشرطة . وكانت أنفع ما تكون للشرطة وأقدر ما تكون على
إعاتها حين يهاجم الطاعون أو الكوليرا أو أى وباء من هذه
الأوبئة أهل المدينة وما حولها من القرى ، وحين تريد الحكومة

أن تستكشف المرضى وتعزلهم في تلك الخيام التي كان يكرهها الناس
أشد الكره ويفرون منها أكثر مما يفرون من الموت .

هنالك كنت ترى زنوبة حركةً متصلة كأنها النحلة لا تستقر
ولا تهدأ ولا تعرف السكون والاطمئنان . هي في كل شارع وفي كل
حارة وفي كل زقاق وفي كل بيت ، ونقالة الصحة من ورائها تجوب
الشوارع والأزقة والحارات وتختطف المرضى من بيوتهم اختطافاً .
وفي تلك الأوقات كان الناس يبغضون زنوبة أشد البغض ، ولكنهم
كانوا يضطرون إلى لقائها واحتمالها ييسمون لها ويلعنون الوباء لأنه
لم يمسه ولم يحملها على هذه النقالة ولم يضطرها إلى هذه الخيم
التي تضطر إليها الناس .

وقد جمعت زنوبة من كل هذه الحرف مقداراً لا بأس به من
المال ، فلما تقدمت بها السن بعض الشيء أخذت تستثمر ما جمعت
وتنميّه . وقد سلكت إلى ذلك طريقين : فهي من ناحية مرايية تقرض
الجنه بثلاثة أمثاله ، منجّمةً على العام ، وتشتري من الأسواق في المدينة
والقرى ما تستطيع شراءه من الحب رخيصاً ثم تبيعه بين الفقراء
والبائسين ، تشتطّ عليهم في الربح لأنها تصبر عليهم في اقتضاء
الثلث . وقد زهد الشباب فيها وقلّ نشاطها إلى اللهو الجريء ، فبحشت

ثم بحثت ثم اختارت لنفسها رجلاً من الخفراء غريباً عن المدينة وفد إليها منذ حين ، قوى البنية طويلاً ضخماً ، مخيف الصوت ، ولكنه على ذلك ضعيف النفس ، سيء الخلق ، مدخول الضمير ، فاتخذته زنوبة لنفسها زوجاً أو خليلاً ، وعاشت معه عيشة يقرّها القانون وتنكرها الأخلاق والدين ، ويمقتها أهل المدينة أشدّ المقت . وهى حين رأيها لأول مرة كانت قادمة على القرية التى كنا فيها لتشتري ما تستطيع شراءه من القمح والذرة والفول ، ثم لتعود به إلى حيث تمتص به أموال الفقراء والمعدمين .

ولم تكن خضره أقلّ خطراً من زنوبة ولا أهون شأنًا ، وإنما كانت مثلها معروفة بعيدة الصيت يتحدث الناس بها وبأنبائها حين تخرج من المدينة وحين تعود إليها ، ويشقى بها الرجال والنساء جميعاً ويسعد بها الرجال والنساء جميعاً أيضاً .

كانت دلالة تفد إلى العاصمة من حين إلى حين فتجلب منها مقداراً غير قليل من هذه العروض الخفيفة اليسيرة الرخيصة التى هى مع ذلك فتنة للنساء وشقاء ومتعة للرجال . لم يكن فى المدينة بيت مترف إلا وبابه مفتوح لخضرة تدخله جهراً وتدخله سراً أيضاً ، ونفس سيدة البيت مفتوحة لخضرة أيضاً تتلقى أحاديثها

وتسمع أنباءها ، وقد تفضى إليها بالأحاديث وقد تحملها الرسائل والأنباء . وكان نشاط خضرة يشتدّ ويعظم إذا كان الشتاء وجرت في النيل بواخر كوك مصعدة وهابطة . فقد كانت خضرة تذهب إلى القاهرة وتعود ومعها ما تشتري من البضائع والعروض ، تصطح هذه البواخر لأن أجور النقل فيها كانت يسيرة للدرجة الثالثة ، ولأنها كانت تستطيع أن تصطحب فيها من الحقايب والمتاع ما لم تكن تستطيع أن تصطحبه في القطار .

كانت إذا عادت إلى المدينة تسمع بها الناس وانتظر النساء مقدها عليهن وزيارتها لهن . وكانت أسعد السيدات هذه التي تظفر بزياتها الأولى ، تسبق إلى خير ما عندها من ضروب الأقمشة على اختلافها ، ومن صنوف الأعطار ، ومن هذه الأدوات اليسيرة الهيئة التي يحتاج إليها النساء ويتنافسن فيها ، ومن أنواع الخرز بنوع خاص ، ومن هذه الحلقات الزجاجية المختلفة التي يتخذها النساء حلياً لأذرعهن يعالجن لبسها علاجاً شديداً دقيقاً خطراً ، وقلماً يفرغن من هذا العلاج دون أن تكون إحداهن قد أحدثت في يدها أو في ذراعها جرحاً بليغاً . وكان الأسبوع الأول لعودة خضرة من القاهرة عيداً متصلاً في البيوت للنساء والأطفال جميعاً ، أولئك يسعدن بما تعرض عليهن

من عروض الزينة والمتاع ، وهؤلاء يسعدون بما تجلب لهم من الحلوى وجوز الهند ، ولا سيما هذه الحلوى التى كانت تجلبها خضرة من القاهرة والتى لم يكن من الممكن ولا من اليسير أن تصنع فى المدينة ، فقد كانت رقيقة لينة لا تشقى بمضغها الأضراس ، وتجذ فيها الأفواه والحلوق لذة لا مشقة فيها ولا عناء كهذه اللذة التى تجدها فيما يصنع فى المدينة من الحلوى السمسمية أو المحصية الغليظة اليابسة التى يتعاون على إذابتها الريق والأضراس واللسان فلا تبلغ منها ذلك إلا بمشقة وجهه .

وكانت خضرة تحمل إلى الفتيات النواهد فتنة لا تشبهها فتنة بهذه المناديل الملونة التى كانت تجلبها لهن والتى كن يفتنن فى إدارتها حول رؤوسهن وفى اتخاذها سجوناً فتانة خلابة لشعورهن الثقال . ولا تذكر هذه الضفائر أو هذه الخيوط التى تنظم فيها قطع دقيقة رقيقة ضيقة من المعدن والتى توصل بالضفائر ، وبضفائر الفتيات النواهد خاصة ، فيكون لها على ظهورهن منظر حسن ، ويكون لها رنين حلو إذا مشين أو أتين بعض الحركات . وكان الرجال يحتملون عودة خضرة من القاهرة باسمين بل مغتبطين أول الأمر ، يجدون فى ذلك رضى بريئاً وتلهية نقيّة للنساء والفتيات ، فإذا مرت أيام وكثر تردد

خضرة على البيوت واشتد طمع النساء فيما تعرض عليهن من المتاع ، وظهرت رغبة النساء ملحّة على وجوههن وفي حديثهن وفي تنكرهن للرجال حين يظهرون تمنعاً أو إباء ، ضاقوا بخضرة أشدّ الضيق ، وودّوا لو تذهب مرةً إلى القاهرة فلا تعود .

وكانت خضرة إذا فرغت من إرضاء نساء المدينة على اختلافهن في الطبقة والثراء ، تنقلت بما يبقى لها من سقط المتاع بين ما يحيط بالمدينة من قرى الريف . وهى فى ذلك اليوم الذى لقيتها فيه كانت تزور القرية ومعها حقيبتان أو ثلاث فيها من هذه الداوتر الزجاجية ومن الخرز والمناديل الملونة ما لم تقبله المدينة وما تتلقاه القرى بلهفة شديدة ، وما لعلّه يؤرق ليل كثير من الريفات ويملاً أحلام كثير من عذارى الفلاحين .

ومن الخطأ أن يظن أن نفيسة كانت أقلّ شهرةً من صاحبتيها أو أيسرّ منهن شأنًا عند أهل المدينة وعند أهل الريف . كانت متقدمة فى السن قد بعد عهدا بالشباب وتركت الشيخوخة فى وجهها وصوتها وجسمها كله آثاراً قبيحة منقّرة للنفوس ، ولكنها على ذلك كانت دخيلةً فى كل بيت ، صديقة لكل امرأة . كانت غرّافة تقصّ ما كان وتصف ما هو كائن ، وتنبئ بما سيكون . وكانت لها صلة قوية بالجن والشياطين ، تسعى لوسائل بينهم

وبين النساء وتستخدمهم في كثير مما يشغل حياة المرأة الجاهلة الساذجة التي لا تزال تؤمن بأن سلطان الجن على الناس لا حد له . هذه ضيقة بزوجها لأنه يخونها أو يؤثر عليها ضررها فهي تستعين بنفسية لتسلط عليه عفريتاً من الجن يصدّه عن خليلته أو عن زوجته . وهذه تحسن من زوجها نشوزاً أو إعراضاً فهي تستعين بنفسية لتتخذ لها من الطلسمات ما يعطف عليها زوجها ويجعله قعيدة دارها . ولم تكن نفيسة أقل تأثيراً في نفوس الرجال والشبان منها في نفوس النساء والفتيات ، فقد كانت تحسن استشارة الودع وسؤاله عن الغيب ، وقد كانت تحسن استعطاف النساء إذا نفرن أو أعرضن ، وقد كانت تحسن تسخير الجن في قضاء ما يلتوى من الحاجات ، وكانت نفيسة مشغولة دائماً لا تكاد تستريح من السعي بالرسائل والحاجات بين رجال المدينة ونسائها وبينهم جميعاً وبين الجن والشياطين ، ولكن شهرتها لذلك قد جاوزت المدينة ووصلت إلى القرى وتسامع بها أهل الريف ، فأخذوا يسعون إليها ثم أخذت هي تسعى إليهم وتنتقل بينهم بسحرها وطلسماتها وودعها ، وهي حين رأيها كانت تزور القرية لتحمل إلى أهلها بعض ما يحتاجون إليه من أنباء الغيب .

ولم يكد يتصل الحديث بيننا وبين هؤلاء النسوة حتى كانت نفيسة أسرعهن إلى نفوسنا ، وأحرصهن على أن تمتلكنا وتصل بيننا وبين أصدقائهن من الجن والعفاريت ، لم تجد في ذلك مشقة ولم تتكلف له جهداً . فهذه الفتاة الذاهلة التي لا تكاد ترى ولا تسمع ولا تفهم ولا تجيب خليقة أن تلفت العجوز الساحرة إلى نفسها ، وقد فعلت . . . فما أكثر ما تلح هذه العجوز في السؤال لتعرف ما بهذه الفتاة ، والفتاة لا تجيب وأمنّا أشدّ منها حرصاً على الصمت وإغراقاً فيه ، والسؤال يتجه إلى دونهما ، فاضطر إلى أن أزعج أن بأختي علة قد أعيت الطبيب وداء لا نعرفه ولا نجد له دواء ، وما أيسر ما تقض السرة وينثر منها الودع على الأرض ثم ما أسرع ما تعمل فيه يد نفيسة جمعاً وتفريقاً ، وضماً ونثراً ، تلائم بينه وتخالف وتتخذ منه أشكلاً تقرأ فيها من أنباء الماضي والحاضر والمستقبل أعجب العجب .

إني لأراها الآن وقد مضت أعوام طوال منذ ذلك اليوم وهي تنظر في الودع وتطيل النظر ثم تظهر على وجهها هذه الآيات التي تدل على أنها تحاول أن تفهم شيئاً فلا تستطيع ! وإني لأسمع صوتها المحطم الذي كان هامساً دائماً مهما يرتفع ! وإني لأحفظ جملها منذ ذلك اليوم ما نسيتهما ولن

أنساها ، وكيف أنساها وقد صدقها الزمان ؟ نظرت إلى ودعها ،
ثم أطالت النظر فيه ، ثم رفعت عينها إلى أختي فأطالت النظر في
وجهها ، ثم عادت إلى الودع فأثبتت عينها فيه ، ثم رفعت رأسها
وهي تقول للفتاة : إن أعرك يا ابنتي لعجيب ، إني أراك بين اثنين :
أحدهما يحبك وسيؤذيك ، والآخر آذاك وسيحبك ، وإني لأحاول
أن أفهم فلا أستطيع ، والرأى لك يا ابنتي أن تستشيري سادتنا من
الجن أو سادتنا من الأولياء . . . وما أرى أن هذا عليك عسير ،
ففي هذه القرية القريبة منا والتي تستطيعين أن تبلغيها في ساعة
وبعض ساعة ماتحين : فيها مقام سيدنا فلان ، وإنه ليأتي
بالأعاجيب ، وفيها دار فلانة وإن قرينها من الجن ليحدث بالأعاجيب
أيضاً . ولم تكد نفيسة تنطق بالجملة الأولى من حديثها حتى وثبت
أمنّا كأنما دفعت إلى الوثوب دفعاً آلياً ، وانطلقت مسرعة فلم نرها
إلا بعد وقت طويل .

(٧)

ها أنت ذا أيها الطائر العزيز تنشر في الجو المظلم الساكن نداءك السريع البعيد كأنه استغاثة المستغيث . . . ما خطبك ! وما أنباؤك ! وما الذى يغريك بى ويسلطك على ؟ ! لا أكاد أمضى فى النوم حتى تسرع إلى فتوقظنى كأنما أخذت على نفسك أو أخذ غيرك عليك عهداً ألا تخلى بينى وبين النوم ، وكأنما كلفت نفسك أو كلفك غيرك أن توقظنى إذا تقدّم الليل لتظهرنى من الأمر على ما كان خليقاً أن يفوتنى إن استسلمت للذة الأحلام . . . ! أبعث نداءك سريعاً بعيداً أو لا تبعثه فقد أيقظتنى ، وما أرى أنى سأعود إلى النوم دون أن أشهد شيئاً كالذى شهدته أمس حين كانت أختى ماثلة ذاهلة كأنما تنتظر أخبار السماء . إنى لأشعر بأنى سأراها ماثلة ذاهلة حيث رأيتها أمس ، وإنى لأتهيباً للنهوض إليها ، ولكن نداءك لا ينقطع ، أن لك لشأناً . . . !

ماذا ؟ إن جو الليل المظلم الساكن المهيب ليس خالصاً لك هذه الليلة كما تعود أن يخلص لك من قبل ماذا أيقظ الطير فإنى لأسمع خفق أجنحتها وأحس كأنها منتشرة قد خرجت من أوكارها

حائرة مضطربة فى هذا الجو الخفيف ؟ ماذا أيقظ الكلاب ؟ إني لأسمع
نباحها قوياً متصلاً بعيداً فيه إلحاح وترجيع كأنها تدعو من لا يسمعها .
ماذا أيقظ الناس ؟ إني لأحسّ حركة خارج الدار وإني لأسمعهم
يتداعون ويتنادون ، وإني لأشعر كأنهم يسرعون إلى غاية لا أعرفها ،
ماذا أيقظ من فى الدار ؟ إن الحركة من حولى لتكثر وتختلط وتشتدّ
وإني لأشعر كل الفرع قد انتشر فى الجو كما ينتشر الدخان الكثيف .
وهذا نداؤك أيها الطائر العزيز ما زال متصلاً سريعاً بعيداً
كأنك لم تؤكّل بإيقاظى وحدى وإنما وكلت بإيقاظ الناس
جميعاً والأحياء جميعاً . أنظر ! إن كل شىء قد استيقظ من حولك
ولكن نداءك ما زال متصلاً سريعاً بعيداً . أتريد أن تتحدث إلى
النجوم ؟ ولكنى أنهض لكل ما أحسّ حولى من حركة وضجيج
وعجيج واضطراب فأسأل أختى هذه المائلة الذاهلة ماذا حدث ،
ولكنها لا تجيب كأنها لم تسمع شيئاً ، فيأخذنى حنق وغيط ،
وأهزها هزاً عنيفاً وأنا أصيح بها ماذا ! ألا تسمعين ؟ ألا ترين ؟
هنالك تتنبه وتجيئنى فى شىء من الوجمل : ماذا تريدن ؟ فأتركها
مستبشرةً منها وأهبط إلى فناء الدار حيث اجتمع النساء يتساءلن
ويتجاوبن ، ويشتدّ بينهن لغط مختلط لا يكاد ينقضى .

هناك أجد أمناً بين هؤلاء النساء ، شاهدةً كالغائبة ، ومستيقظةً كالنائمة تسمع ولا تقول . فإذا سألتها عما حدث أجابتني في صوت هادئ حزين : زعموا أن رجلاً قد قتل قريباً من القرية يقال له عبد الجليل ، وقد جاء الصريح إلى العمدة فأيقظ رجاله وهو يستحثهم للتماس القاتل .

وقضينا بقية الليل ساهرات نتسمع ما يصل إلينا من الأخبار التي إن ابتدأت فلا نهاية لها ، وهى أخبار القتل فى المدن والقرى وفى الحقول وعلى الطريق العامة . وقد زعم من حدثنا من أهل الدار أن مقتل هذا الرجل الذى صرع الليلة قد كان أمراً محتوماً .

لقد كان هذا الرجل شيخ الخفراء فى القرية ، وكان قوياً شديداً البأس عظيم السطوة ، وقد حمى القرية من اللصوص والمعتدين . وكانت له فى القوم آثار لم تنس فهم يطلبونه بها ، وقد اضطربت القرية منذ ليالٍ لأن هذا الرجل أقبل وقد انقضى من الليل أكثره على بيت من البيوت ، فجعل يطرق بابه طرْقاً عنيفاً ، ويدعو صاحبه بصوت كأنه الرعد أن أفق أيها المجنون فإن اللصوص قد اقتحموا عليك الدار . فذعر أهل البيت لهذا الطرْق وهذا النداء ، وأسرع الرجل إلى الباب فما راعه إلا شيخ الخفراء يهرق ويرعد ويلج

فى النذير ، ثم دخل الدار وطاف بمجراتها وغرفاتها يلتمس اللصوص ولكنه لم يجد أحداً . وقد استيقظ الناس واجتمعوا حوله وحول صاحب الدار ، وهو يقسم ويغلظ فى القسم لقد رأى اللصوص يقتحمون الدار اقتحاماً .

منذ تلك الليلة تحدث أهل القرية بأن شيخ الخفراء قد تعرض للموت ، وأنه إنما روع أهل تلك الدار ليلجأ إليهم ويأمن عندهم من طالبيه . ومنذ تلك الليلة أستيقن أهل القرية أن قوماً قد نذروا دم شيخ الخفراء ، وليسوا بمقلعين عنه حتى يقتلوه . وها هم أولاء قد وفو بالنذر وقتلوا عبد الجليل . وها هو ذا العمدة يفرق رجاله فى كل صوب ، يأمرهم باقتحام هذه الدار ، وبالبحث عن فلان والقبض على فلان والتوثق من فلان . وهذه القرية هائجة مأجبة تسأل وتبحث ، وتستقصى وترتاع .

وهذه جثة عبد الجليل طريحة غير بعيد من الجسر ، قد فارقتها الحياة بعد احتضار طويل ثقيل ، وقد قام عندها الرجال يحفظونها فى مكانها حتى تأتى الشرطة من المدينة ، وحتى يأتى المحققون . وقد أقبلوا جميعاً بعد أن ارتفع الضحى فأقاموا حول الجثة حيناً يسألون ، ويشرح الطيب . ثم أقبلوا نحو القرية ونساء الدار

مشرفات ينظرن إليهم ، وهم يسعون إلى بيت العمدة ليشربوا القهوة ،
ويعضوا في التحقيق ، ويصيبوا شيئاً من طعام .

وأنا مشرفة أنظر مع الناظرات ، ولكن ماذا ؟ إنى لأتراجع مسرعةً
وقد اضطرب قلبي اضطراباً لا يكاد يستقر معه في صدرى ، وقد
تكلّفت جهداً عنيفاً لأحبس صيحة كادت تنبعث من فمى ، وهذه
أُمى تجرّنى إليها لا تقول شيئاً ولكنها تهبط معى إلى فناء الدار ،
ثم تهدّئنى بعض الشيء ثم تقول لى كالهامسة : إياك أن تظهرى
أو أن تدعى هذا المكان فإنه والله إن رآك لم ينصرف حتى
يصطحبك . ذلك إنى كنت قد رأيت المأمور .

لماذا أكذب نفسى ! ؟ لقد هممت غير مرة أن أسعى إليه وأن
أسأله عن خديجة ، وأن ألحّ عليه فى أن يصطحبنى ليردّنى إلى
تلك الحياة الناعمة ، وليجمنى من هذا الظلام الذى كنت أدفع
إليه على غير إرادة ولا رأى .

نعم لقد هممت بهذا كله ولقد كدت أن أفعل ، ولكنى رأيت
أُمى وما كانت تصطحب من بؤس قديم ، ورأيت أختى وما كانت
تستقبل من بؤس حديث ، فأثرت شقاء هاتين الشقيتين على
ما كنت أحب لنفسى من الخير ، وبقيت معهما أنتظر ما تضر لهما الأيام .

(٨)

آمنة . . آمنة . . أقبل . هذا صوت أمنا ينتهى إلى ، وقد انتحيت ناحية مع زنوبة وخضرة على السطح ، نتحدث ألواناً من الحديث ، وأختى جالسة غير بعيد قد شغلت عنا بما يملأ نفسها من همٍّ وحزن ، فإذا سمعت الصوت أسرعنا إلى أمي في الناحية الأخرى من سطح الدار فإذا هي قائمة قد ظهر عليها النشاط وانجلت عن وجهها سحابة الحزن التي كانت تغشيه ، وهي تبسم وتشير بيديها وتقول لى : أنظرى أنظرى هذه والله إبل بنى وركان . فأنظر فأرى أعرابياً كأنه الشيطان وقد أناخ قريباً من الدار جملين عظيمين وأخذ يحيط عن أحدهما بعض الأثقال . أمي مستبشرة متلهلة تشير وتلحّ في الإشارة وتقول : ألم تعرفى خالك ناصراً ؟ ألم تعرفى هذين الجملين ؟ عرفت خالى ، فما أكثر ما كنت ألقاه أيام الطفولة والصبي ، وما أكثر ما كنت أخافه حين ألقاه وأكره منه هذا العنف الذى يبتدر كل من اتصل به ، وهذه اللهجة القاسية التى يمتاز بها حديثه ، وهذا الصوت القاطع الذى يلقي إليك الكلمات فى حزم وعزم وشدة لا تقبل مراجعة ولا تسمح بجidal !

نعم عرفت خالى ناصراً ، وذكرت أنى كثيراً ما كنت أتقيه إذا لقيته ، ولا أستجيب لدعائه إذا دعانى إلا كارهة ، ولا أطمئن إلى ما كان يظهر لى من مودة وعطف وحنان ، ولا أقبل إلا راحة ما كان يقدم لى أحياناً من البلح والعجوة ، يريد أن يتملقنى ويترضانى .

نعم عرفت خالى ناصراً وذكرت أنى كنت سيئة الظن به ، شديدة النفور منه ، وأنى كنت ألوم نفسى أحياناً على سوء ظنى وشدة نفورى ، حتى إذا صرع أبونا ورأيت كيف أستقبل أمى بآبناء هذا المصرع وكيف قسا عليها وعلينا ، ولم يفكر فى أنها أيمّ وفى أننا يتيمتان وإنما فكر فى الأسرة وحديث الناس عنها ، وما يجر عليها هذا الخطب من عار ...

ثم لم تكد تمضى أيام حتى أقبل ذات صباح ، مظلم الوجه قاسى اللحظ جافى اللفظ ، فأقنع أمنا بوجوب الرحيل ، وأنبأها بأنه سيعدّ لهذا الرحيل عدته وسيصحبنا حتى يعبر بنا البحر ، ويبلغنا مأمناً فى قرية من قرى الريف .

ثم جاء هذا اليوم الذى أخرجنا فيه من دارنا ، وأبعدنا فيه عن قريتنا ، ونفانا فيه من أرضنا ، وصحبنا إلى قرية من هذه القرى المنتشرة وراء البحر ؛ ثم أسلمنا إلى القضاء ، وانصرف عنا راجعاً إلى حيث ينعم مع الأسرة بالدعة والخفض وبالأمن والهدوء .

منذ ذلك اليوم لم أشكّ في أن رأيي فيه لم يكن خاطئاً ،
وأن حكمي عليه لم يكن قاسياً ، وأن نفورى منه لم يكن إلا صورة
صادقة لما ينبغي لهذا الرجل الغليظ في قلب فتاة ضعيفة بريئة
وادعة ، لم تجن على أحد شرّاً ولا تفهم أن يجنى عليها أحد شرّاً .
وكانت أُمّي وأختي تتبعانه ببصريهما محزونتين لفراقه أشدّ الحزن ،
وكأنه كان يمثل في نفسيهما صورة الوطن الذي نفينا عنه ، أمّا
أنا فكنت أنظر نحو الغرب الذي كان يوجه شطره ، ولكنى لم
أكن أراه لأنى لم أكن أحفل به .

إنما كنت أحاول أن تنفذ عيني من هذه المسافة البعيدة والأمد
المنفسح إلى هذه القرية المظمتنة التي أخرجت منها إخراجاً ، لعلّى
أرى دارنا ، ولعلّى أرى هذا الفناء المنبسط أمامها ، والذي كنت
ألعب فيه مع أترابي من الغلمان والصبيّات ، ولكنى لم أكن أرى
القرية ولم أكن أرى الدار ، إنما كنت أرى هذه الهضاب المرتفعة في
السماء بعض الشيء وأقدّر أن قرينتنا تقوم هنا على هضبة من هذه
الهضاب ؛ وكنت أرى هذا الخط من الماء يحول بيننا وبين هذا السهل
الجميل الذى ينبسط من دون هذه الهضاب والذي كنت لا أمضى
فيه قليلاً حين نفينا من قرينتنا إلا أحسست كأنى أترك فيه قطعاً
من نفسى أنثرها في أرضه الخضراء نثراً !

نعم عرفت خالى ناصراً وهو قائم بإزاء جمليه بعد أن وضع أثقاله كأنه الشيطان ، وما صورته قطّ إلا شيطانا . ومنذ هذه اللحظة التى رأيتّه فيها يضع أثقاله ، وسمعتّه فيها يسأل عن صاحب الدار ، لم أزد إلا يقيناً بأنه شيطان . سأل خالنا عن صاحب الدار وكان رجال العمدة قد دخلوا عليه فأنبأوه بأن رجلا أعرابياً عليه مظاهر القوة والبأس والوقار والثراء ، قد أقبل يسأل عنه ، نفخّ العمدة لاستقبال ضيفه ، وما زلت أراه يستقبل الأعرابى باسمًا وادعا ، والأعرابى يحميه فى غلظة وجفوة ثم يقول له متعالياً : إن النبىّ قبل الهدية يا عمدة . يقول ذلك ويشير إلى أثقاله التى حطّها عن جملة إشارة المكبر لها ، الدالّ بها ، والعمدة يدعو بعض رجاله ويشير إليهم أن احملوا هذه الأثقال وأريحوا هذين الجملين . ثم يدعو ضيفه الأعرابى رفيقاً به ، شاكرًا له ، إلى الراحة والدخول معه إلى الدار .

وقد اطمأنت الدار بالأعرابى ، ولقى من كرم مضيفه وبشاشته ما أَرْضاه . فلما مضت ساعة أو ساعات والناس مجتمعون حول عمدتهم يخوضون فيما تعودوا أن يخوضوا فيه من الحديث ، قال فجأة : إن لنا عندك ودائع يا عمدة فاردد علينا ودائعنا ، فالله يأمر أن تؤدّى الأمانات إلى أهلها . قال العمدة : ودائعك محفوظة لك ،

مردودة عليك يا شيخ العرب فما ذاك ؟ قال الأعرابي : امرأة
أقبلت منذ أيام ومعها فتاتان ، سألتك الضيافة فأويتها وآويت ابنتيها
وأحسنتم لقاءهن وأكرمت مشواهن ، ونحن أعرف الناس بحق
الكرام . قال العمدة : وما أنت وهذه المرأة وابنتاها ؟ قال الأعرابي :
هى أختى . قال العمدة : فقد نزلن على الرحب والسعة وما فعلت إلا
ما كان يجب علىّ ، وما نفع هذه الدور إذا لم تفتح لإيواء الغرباء ؟ !
ولكن ودائعك يا شيخ العرب لن تردّ عليك حتى تقيم بيننا حيناً
فتسمع منا ونسمع منك فإن حديث الأعراب يلذنا ويرضيّنا ، وقد
بعد عهدنا به منذ رحل عنا سعيد وأصحابه ، وكانوا قد خيموا فى
ظاهر القرية أشهراً ، ثم ارتحلوا لا عن قلىّ ولكن عن رغبة فى
الرحيل . واتصل الحديث بين العمدة وأصحابه وبين هذا الأعرابي
حتى انقضت ساعات السمر .

(٩)

أما أنا فلم أطعم النوم فى هذا الليل الطويل الثقيل ، لأن
أختى لم تطعم فيه النوم ، ولم يحتج طائرى العزيز إلى أن يوقظنى
بندائه السريع البعيد ، ولم أسمع منه هذا النداء كأنه عرف أنى

ساهرة مؤرقة فلم يحتج إلى تنبيهى ، فانطلق فى الجو الفسيح يئبه
غيرى من الذين لم تؤرقهم الهموم والأحزان .

عدت إلى أختى كئيبة ضيقة الصدر متكلفةً مع ذلك أن أخفى
ما أجد من الكآبة وضيق الصدر ، فأنبأتها بمقدم خالنا وبأننا
مرتحات فى أكبر الظن إذا أسفر الصبح ، وجعلت أزيّن لها
الرحيل وركوب الإبل واجتياز القرى والنظر إلى هذه الحقول المنبثة
بيننا وبين البحر ، والنظر إلى هذا الخلط من الماء الذى يفصل بيننا
وبين بلادنا فى الغرب ، ننظر إليه مقبلات عليه بعد أن نظرنا
إليه مدبرات عنه ، ثم نعبّر هذا البحر ونمشى على هذا السهل
الجميل النضر الذى تلتقى فيه أرض الصحراء المجدبة بأرض الريف
الخصبة ؛ ثم نصعد تصعيداً هيناً كأنما نرقى فى الدرج إلى هذه
الهضبة الجميلة التى تقوم من ورائها قريتنا وادعةً هادئة كأنها
تحتفى بها من كل طارق يأتياها من الشرق . أنا أزيّن لها هذا
كله بلسانى ، وأتكلف لها مظهر المراحة له المعتبطة به المقبلية عليه
فى سرور ولذة ورضى وشوق ، والله يعلم أن كنت لمحزونة أشدّ
الحزن مبتئسة أشدّ الابتئاس ، تنازعنى نفسى إلى ما وراءنا نحو
الشرق من هذه المدينة الكبيرة التى ترامت أطرافها ، وامتدت

على ضفة النيل هادئة وادعة ، ناعمة بما فيها من حضارة وترف
وثرء ! والله يعلم أنى لم أكن مقبلة على هذا الغرب الذى سأدفع إليه
إذا أسفر الصبح إلا برغى وعلى أشد الكره منى . ما كنت
أحفل بالحقول المنبتة ، ولا أجد شوقاً إلى هذا الخط من الماء ،
ولا أجد كلفاً بهذا السهل الجميل النضر ، ولا أجد رغبة فى التصعيد
الهمين إلى هذه الهضبة المهيبة ، ولا أجد حيناً إلى هذه القرية
الوادعة التى درجت فيها . إن هناك حقولاً أخرى منبتة نحو
الشرق تنحدر إلى المدينة فى دعة وفتور وتكسر جميل ، وإن هناك
خطاً عريضاً من الماء أشد روعةً وجمالاً وإثارةً للسحر فى القلوب
من هذا الخط الضئيل النحيل الذى يسمونه بحراً وما هو بالبحر ،
وإنما هى قناة لا يصح أن تذكر مع النيل . وإن هنالك لدوراً
شاهقة واسعة مترفة تحيط بها الحقائق البديعة وتلدّ الإقامة فيها
والحياة بين غرفاتها وحجراتها واللهو بين ما يحيط بها من الأشجار
والأزهار . وإن هناك لفتاة جميلة وسيمة رقيقة هى التى أحنّ إلى
لقائها وأتحرّق على تجديد العهد بها ! وماذا أصنع فى تلك القرية ، وأى
حياة تهأ لى فيها ! ؟ كلها شظف وخشونة ، وكلها جهل وغفلة ، وكلها
رجوع إلى ذلك انطور لأبله الذى جعلت أخرج منه قليلاً قليلاً

حتى امتزت من أمي وأختي وأخذت أشعر بأني أحسن منهما فهماً للحياة ، وأصدق منهما حكماً على الأشياء ، وأشد منهما صبراً على الخطوب ، وأمهر منهما في التخلص من الشدائد والكارثات . ألت أدنى منهما إلى الطفولة ، وأجدر منهما أن أكون غرّة غافلة ؟ ومع ذلك فإني أنظر إليهما كما تنظر الأم إلى صبيتين ضعيفتين محتاجان إلى الحماية والحب وإلى العطف والعون !

كذلك كنت متناقضة أشدّ التناقض ، مختلفة أشدّ الاختلاف ، أزين لأختي ما أبغضه أشدّ البغض ، وأمتي نفسي بما ليس اليه من سبيل . وكثيراً ما خطر لي خاطر فلم أقف عنده لأنه كان يظهر لي مستحيلاً ؛ كثيراً ما خطر لي أن أتغفل من حولي إذا تقدّم الليل وأن أنسلّ من الدار ، وأن أهيم على وجهي نحو الشرق منسابة بين المزارع والحقول والقرى كما تنساب الحية الدقيقة حتى أبلغ المدينة مع الصبح أو مع الضحى ، وإذا أنا حيث أحبّ أن أكون .

لم أقف عند هذا الخاطر الذي كان يمرّ بنفسي من حين إلى حين مرّاً سريعاً فينفذ منها كما ينفذ السهم من الهدف ، لأن الاستجابة له لم تكن ميسورة . وكيف الانسلال من الدار والأحراس عليها قيام ، وكيف الانسياب في الريف ؟ ! وماذا تصنع فتاة وحيدة

فى ضوء النهار فضلاً عن ظلمة الليل ؛ وكيف لى بترك هاتين البأستين
تحميلان وحدهما ثقل الأحداث والخطوب ؟

أقيمى أقيمى يا آمنة ! وأنسى نفسك ولذتك وراحتك ، وأنظرى
الى هذه الفتاة الجالسة أمامك ، إن ذهولها ليمزق القلب ، وإن شحوب
وجهها ليذيب النفس ، وإن هذه الدموع التى أخذت تنحدر من
عينها فى سكون وصمت خليلة أن تصرفك عن كل تفكير
إلا فيها . وعن كل عناية إلا بها . الحى الحى يا آمنة فى تزيين
الرحيل ، وفى التحدث بما سيجد فى القرية من أمن ، وبما سنستقبل
فيها من هدوء واستمتاع بالحياة الراضية لا نخدم أحداً وقد
يخدمنا الناس .

ولكن أختى لا تسمع لى أو هى تسمع ولا تفهم عنى . هى
مثلى لا تحب الرحيل ولا تحن إلى الغرب ، وإنما تحن إلى هذا
الشرق الذى تركت قلبها فيه . هنالك فى ذلك البيت الجميل الذى
تحيط به هذه الحديقة الواسعة ويقوم عليه ذلك العامل من أهل
الريف ، ويهيش فيه ذلك الشاب المترف الذى يسمونه الباشمهندس .
فى هذا البيت تركت أختى قلبها . وهى من أجل ذلك ذاهلة
ذهولاً متصلاً ، وهى من أجل ذلك عاجزة عن أن تسمع لنا

أو تفهم عنا أو تردّ علينا جواب ما نلقى عليها من سؤال . كنت أحسبها محزنة لما تورطت فيه من خطيئة ، وما أشك في أنها أحسّت هذا الحزن وما أشك في أن الندم قد عذبها تعذيباً ، لكننى بعد أن أنفقت معها ليلة كاملة وتبيّنت من أمرها ما تبينت استقبلت الصبح ونفسى تذوب أسى وحسرة على هذه الفتاة التى تنظر ورائها فترى حباً مضيّعاً ، وتنظر أمامها فترى خوفاً مروّعاً وتودّ لو استطاعت أن تعود أدراجها إلى حيث الحب وما يملن أن يستتبع من نعيم أو بؤس ومن سعادة أو شقاء ولكنها تدفع إلى أمام ، تدفع إلى حيث الخوف والروع وإلى حيث اليأس والقنوط . تدفع فتندفع لا تستطيع أن تقاوم ولا أن تمانع ولا أن تظهر شيئاً ينم عن مقاومة أو ممانعة . يا لها من قوة هائلة تسيطر على النفوس فتتمحو حظها من الشخصية والإرادة محواً ، هذه القوة التى يسمونها الحياء ورعاية العرف وما له من حرّمات !

أنا أكذب على أختى فأزيّن لها ما أكره ، وهى لا تكذب على أحد ولا تحفل بما تسمع ولا تكذب على نفسها ، وإنما أسلمت نفسها للقضاء واستيقنت أن خير ما فى حياتها قد انقضى منذ أمرت أمنا بترك المدينة ، فلم نخالف عن أمرها وإنما استجبنا طائعتين . ولكن

مم كانت تخاف ؟ وما هذا الروح الذى كانت آياته على وجهها بين حين وحين والذى كان يبعث فى جسمها من وقت إلى وقت رعدة قوية توشك أن تدفعها إلى الوثوب ؟ إن فى هذا الغرب الذى ندفع إليه خموداً وخولاً ويأساً وقنوطاً ، وكل هذا يسوء وكل هذا يملأ القلب حزناً وأسى ؛ ولكنه لا يروع ولا يبعث فى النفوس هذا الجزع ولا يثير فى الأجسام هذه الرعدة العنيفة الخيفة . كلا ! لم تكن مخطئة ولا غالية حين كان الروح يملأ نفسها . فقد كانت تعلم ما لا أعلم ، وكانت تقدّر ما لا أقدر ، وكانت تمر أمامها صور حزينه شاحبة ، ممتعة مذعورة باعثة للذعر ، صور فتيات ثلاث لم أسمع بهن قبل هذه الليلة ولكنهن كن حديث المدينة منذ عام وبعض عام . خرجن من المدينة كما خرجنا نحن ، أو خرجن منها كما أخرجن نحن ، ثم لم يعدن إليها ولم تعد إليها أسرهن وإنما عادت إليها أحاديثهن ، كلها خوف وروع وكلها يأس وقنوط وكلها جزع وفزع ، وكلها يلونها الدم وقد يساقط منها قطرات !

ما أنت وهذه الخواطر الدامية أيتها الفتاة التعسة ؟ ! إنما ترحلين بين أمك وأختك وخالك إلى قريتك التى ولدت فيها لتعيشى بين قوم أحبك وأحببتهم ، وما زالوا يحبونك ولقد كنت تحبينهم منذ حين . أتدكرين ،

لقد كنت أكثرنا حديثاً عنهم وحينئذ إليهم في المدينة كلما التقينا .
 ما بالك تخافين منهم وتسفقين من لقاءهم ، وإنك لواجدة عندهم من
 الحماية والأمن ما لا سبيل إليه في حياة الغربة والعمل في هذه
 البيوت التي لا يعطفها علينا حب ولا ود ؟ ! ولكنها لا تسمع لى
 أو لا تفهم عنى ، وإنما هى مشغولة بما تركت من حب وبما تستقبل
 من روع ؛ تمر أمامها صور ذلك الشاب الجميل المترف الذى حبته
 وتمر أمامها صور هؤلاء الفتيات خائفة مخيفة مروعة مثيرة للروع .
 أما هذه التى تسمى أمينة فقد احتز رأسها احتزازاً ، وأما هذه التى
 تسمى مارتة فقد شق صدرها شقاً ، وأما هذه التى تسمى ملزمة فقد
 يقال أنها دفنت حية ولقيت حتفها مختنقة فى التراب . ما الذى
 ينتظرنى من ألوان الموت هذه ؟ ! وأنا أرد عنها هذه الخواطر جاهدة ،
 أتلف حيناً حتى أقبلها وأداعبها ، ثم أشتد فى التلطف بها حتى
 أستعطفها بما أسفح من دموع ، ثم أعنف وأغلو فى العنف وأنذرها
 بأنى سأقص خوفها كله على أمنا وخالنا وسأستوثق لها منهما
 أو سأمتنع عليهما فلا أتبعهما ولا أدعها تتبعهما ، وسأستجير لى
 ولها منهما بهذا الرجل الكريم الذى نحن ضيف عنده . ولكنها إذا
 سمعت منى ذلك ثابت إلى نفسها وردتني إلى الأناة والمهل ، وأظهرت

التجلد والصبر ، وتكلفت ثقة لا تلبث أن تضطرب واطمئناناً
لا يلبث أن يزول .

يا لك من ليل طويل بغيض ، لم نعرف فيه راحة ولا أمناً
ولا هدوءاً وإنما كنا فيه نهب الندم المضى على ما فات ، والخوف
المهلك مما هو آت ، والضيق الشديد بما نحن فيه ! والليل يطول
ويطول كأنه يحمل أثقالاً لا قبل له بها ولا قدرة له على السير
معه ، فهو يزحف زحفاً بطيئاً أشد البطء ، والهم يغشى نفوسنا تغشية ،
وهذه الخواطر المنكرة تدور فى رؤوسنا دوراناً متصلاً يكاد يفنيها .
ولكن ما هذا الصوت الذى يشق هذا السكون الذى نحن فيه
شقاً ويردنا إلى أنفسنا فزعتين جزعتين كأنه أخرجنا من نوم عميق ؟
إنه ضياح الديك يودع الليل ويؤذن بمقدم الصبح . بماذا تصيح
أيها الديك ، وبماذا تريد أن تنبئنا أو تنبأ لنا ؟ قالت أختي :
أتذكرين صاحبة الودع ؟ إنها رأتني بين رجلين أحدهما أذاني وسيحبنى
والآخر أحبنى وسيؤذنى ، ألم تفهمى عنها شيئاً ؟ قلت وماذا تريدني
أن أفهم عن هذه العجوز الحقاء ومن هذا السخف الذى تردده
فى كل مكان وتقدمه إلى الناس جميعاً ؟ كل رجل عندها بين
امراتين أو بين نساء ، وكل امرأة عندها بين رجلين أو بين رجال .

قالت أختي : فإني أرى هذين الرجلين رأى العين وأعرفهما كما أعرفك ، وستريهما وستعرفيهما وستبغضين أحدهما أشدَّ البغض وستحبين أحدهما حباً كثيراً ! .

وهذا الهواء يضطرب ويضطرب معه صوت المؤذن يدعو إلى الصلاة ، والناس يستيقظون ويخرجون من منازلهم أفراداً بين ذاهب إلى المسجد وذاهب إلى الحقل ، ونحن نستقبل هذا الصباح الشاحب بنفوس شاحبة وقلوب واجفة ووجوه حائلة ، لو استطعنا لأحجمنا ، ولكننا ندعى إلى الإقدام ولا نستطيع امتناعاً على هذا الدعاء .

هذان الجملان قد هيئا للرحيل ، وهذا خالنا قد قام عندهما كأنه الشيطان ، وهذه أمنا تدعونا إلى الخروج في رفق . وها نحن أولاء نودّع من عرفنا من أهل الدار . ثم تمضي ساعة وساعة وإذا ضوء الضحى يغمرنا في هذا السهل الريفى الجميل الذى تمتد فيه عن يمين وشمال هذه الحقول النظرة ترتاح إليها النفوس والأبصار ، ولكن هناك نفوساً لا ترتاح وإنما هى مضطربة دائماً ، وأبصاراً لا تستقر وإنما هى زائغة دائماً . . . إلى أين يمضى بنا هذان الجملان ؟

(١٠)

إنما يمضون بنا إلى حيث الأمن والدعة ، وإلى حيث العز
والمنعة ، وإلى حيث نقضى حياتنا كما تعود أمثالنا من فتيات القرية
أن يقضين حياتهن هادئاتٍ ناعمت ، حتى إذا تقدّمت بهن السن
وأدركتهن ميعة الشباب ونضرته سعى إليهن الأزواج من شباب
القرية أو من شباب القرى المجاورة ، فأصبحت كل واحدة منهن
سيدة في البيت أو سيدة في الخيام ، واستقبلت حياة فيها الجد
والعمل والكد ، وفيها الأبناء والبنات وما يستتبعون من بهجة وقرّة
عين ، ومن شقاء وحزن وأمل وإشفاق . انظري يا ابنتي الكبيرة
إلى كل هذا النور الذي يصبّه الضحى علينا صبّاً والذي يغمرنا ،
والذي نمضى فيه كأنما نخوض لجة البحر انظري إلى هذا النور
الذي يغمرنا ويغمر السهل من حولنا ؛ وانظري إلى هذه الحقول
تنبسط عن يمين وشمال لا تكاد تنتهى ؛ وانظري إلى هؤلاء
الرجال والنساء وإلى هؤلاء الفتيان والفتيات وقد ملأهم النشاط ،
وبعث فيهم الجدّ حياة لا حدّ لها ، فهم يذهبون ويحيثون وهم
يعملون لا يعرفون كلالاً ولا سأمًا ، وأصواتهم ترتفع لا بالشكوى
ولا بالألين وإنما ترتفع بهذا الغناء الساذج الحلو الذي يبعث في

هذا الجو نغماتٍ ساذجة حلوة ، والذي يصوّر الأمل في غير
إسراف ، والرضى في غير استكانة ، والاطمئنان في غير حزن ،
وحب العمل على كل حال ، والثقة بالله على كل حال أيضاً .

انظري يا ابنتي واسمعي ، ثم سلى نفسك أنجدين فيما ترين أو
فيما تسمعين ما يثير خوفاً أو يبعث روعاً أو يدفع إلى يأس ؛ كل
شيء آمن وكل شيء يدعو إلى الأمن ، كل شيء هادئ وكل
شيء يدعو إلى الهدوء . إن ظلمة الليل لمنكرة وإنها لتحب
الخوف وتثيره ، وإنها لتبعث الأشباح من مكائنها ، وإنها لتغري
القلق بالنفوس وتسلب الهم على القلوب . . . لقد كنت يا ابنتي تثيرين
في نفسي مثل ما كان يشور في نفسك من الخوف حين كنت تتحدثين
إلىّ وظلمة الليل تغمرنا من كل مكان . فأما الآن وقد انجلت هذه الظلمة
وأصبحت لا أمدّ عيني إلا رأيت ، ولا أمدّ أذني إلا سمعت ، فإنني
لأضحك منك ومن تلك الهواجس التي كانت تروعك ، ومن تلك
الأشباح الحمراء التي كانت تتراءى لك وتمثل أمامك . وإني
لأضحك من نفسي ومن اتقيادها لك بعض الشيء وتأثره بك إلى
حدٍّ ما . انظري واجتهدي في أن تستحضري هذه الأشباح
الحمراء ، إنها لا تستطيع أن تظهر ولا تجرأ على أن تتراءى فضلاً
(٦)

عن أن تمثل أمامك أو أن تسيرك . إن الأشباح لا تحب النور
ولا تستطيع أن تظهر في وضوح النهار ، إنما الأشباح والخوف
والفزع واليأس بنات الليل ، تطمئن إليه ويطمئن إليها ، تستظل
به وييسط عليها ظله المظلم الساكن الخفيف ؛ فإذا ابتسم الصبح
وأشرق الضحى واستيقظت الحياة ذابت كل هذه المروعات ،
وانجابت مع الظلام ، فلم يبق لها أثر في نفس ولا سلطان على
قلب . انظري إلى هذا الضحى المشرق ، وأفيضى بعض إشراقه
على نفسك . أنظري إلى هذه الحياة التي يملؤها النشاط فأفيضى منها
على قلبك . أأنت تحسین الحاجة إلى أن ترفعى صوتك بالغناء ،
كما يتغنى هؤلاء الشباب عن يمين وشمال ! ؟ ثم انظري إلى أمنا
وخالنا ، إن جملهما ليسعى بهما مرحاً شديد النشاط ، وإنهما ليتحدثان
في هدوء وأمن واستبشار وشيء من الحنان كأنما يذكران أيام
صباهما وشبابهما ، وكأنما يودّان لو رجعت بهما الأيام إلى مثل
هذه السن التي نحن فيها . أترين عليهما مظهراً من مظاهر الريبة
أو آية من آيات المكر ، أو دليلاً من دلائل الكيد ؟ كلا ،
أنهما ليمتزجان بما حولهما فإذا هما حياة وأمن وأمل ، فلنكن
مثلهما حياةً وأمنًا وأملاً .

ويسلك حديثي هذا سبيله إلى قلب أختي كما يسلك النور والحياة سبيلهما إلى نفسها ، وإذا هي تطمئن بعض الشيء لا تبسم للحياة ولكنها لا تسرف في العبوس ، إنما هي كآبة ملحة تغشى نفسها ولكنها كآبة هادئة لا تثير روعاً ولا جزعاً ولا بأساً . والطريق تمضى بنا مستقيمة جميلةً يحبها إلى النفوس هذا النور القوى الذى يزداد قوة وصراحة وإلحاحاً كلما تقدم النهار ، وهذه الحقول الخصبه يملؤها هذا النشاط الخصب وهذا الغناء الحلو يرتفع فى الجو ، ويمتزج بما يملؤه من الضياء والهواء ، ونحن لا نجاز قريه إلا دفعنا إلى قرية أخرى ، حتى إذا تقدم النهار وكدنا نبلغ العصر ، وكنا قد انتهينا إلى بعض القرى قال خالنا : لقد آن لنا أن نستريح ساعات ، ولست أرى بأساً بأن نستأنف السفر إذا أقبل الليل ، فقد أشرفنا على بلادنا وما أرى أن الليل سينتصف حتى نكون قد بلغنا البحر فنبيت عند بنى فلان فإذا أسفر الصبح عبرنا إلى أرضنا ولا يرتفع الضحى حتى نكون قد انتهينا إلى بنى وركان .

ثم يعرج بنا على القرية وينىخ بنا عند دار العمدة ونزل من هذه الدار أحسن منزل ، وإني لشديد الرغبة فى أن أنفق الليل

حيث أنا ، وإن أختي لتشاركني في هذه الرغبة ، ولكن خالنا قد أزعج المسير مع الليل ولم تراجعهُ أَمْنَا ولم تمتنع عليه ، ولم يستطع مضيفنا أن يثنيه عما اعتزم ؟

وبينما كنا نحن نأخذ حظنا من الراحة بعد أن أصبنا مما قدّم إلينا من طعام كان خالنا قد خرج من القرية يريد فيما زعم أن يلمّ ببعض من كان يعرف في قرية مجاورة ، فيغيب عنا ساعة وساعة وساعة ، ويقبل الليل وييسط ظلمته بسطاً ، ونكاد نستئس من استئناف السفر ونكاد نطمئن إلى البقاء حتى يسفر الصبح .

ولكن هذا خالنا قد أقبل ، وهذا صوته الغليظ القاطع يرتفع بالنداء إلى الرحيل . وها نحن أولاء نستجيب لندائه ، وهؤلاء أهل الدار ينكرون عليه هذا السفر حين يقيم الناس وهذا الاضطراب حين يسكن الناس ، ولكن خالنا إذا عزم أمضى . وما هي إلا ساعة أو نحو ساعة حتى كان الجملان قد دفعا بنا دفعاً إلى الطريق العامة وقد أسدل الليل أستاره من حولنا إسداً ، وقد نامت الحياة وخلت الحقول وسكن كل شيء وانقطعت الأصوات ، إلا هذه التي تأتينا من بعيد بين حين وحين فتنبهنا فإذا هي أصوات الكلاب تنبح في القرى البعيدة ، وإلا

هذه الأصوات اليسيرة الخفيفة المختلفة المتصلة التي تحيط بنا وتمتزج بسكون الليل امتزاجاً فتحدث شيئاً من الموسيقى الرائعة المروعة معاً ، وهى أصوات الحشرات والضفادع المنبثة فى الحقول وعلى شواطئ الأفنية .

وربما وصل إلينا من حين إلى حين صوت بعيد يأتينا من يمين أو من شمال فننكره ونرتاع له وهو نداء بعض الطير ولعله نداء البوم ، وربما ارتفع صوت خالنا ببعض غناء البدو فرجع ترجيعاً جميلاً مخيفاً معاً ، ولكنه لا يتصل إلا قليلاً ثم ينقطع . ويمضى خالنا فى حديثه مع أمنا ، أو يغرق خالنا وتغرق أمنا فى الصمت العميق ، وأنا وأختى نسمع لهذا كله ونتحدث فى شىء من الهمس الخائف الوجل كأنما نفرّ من شىء نخافه أو نقدم على شىء نخشاه . ومن يدرى ، لعلنا كنا ننتظر ظهور الأشباح الحمراء ، ونشفق من أن تتراءى لنا وتمثل أمامنا وتكرهنا على أن نتحدث إليها أو نتحدث عنها ؛ والجملان يسمعان بنا سعيّاً فيه إسراع ولكنه إسراع لا يكاد يحسّ ، وكأنهما مثلنا يفرّان من بعض ما يكرهان فهما يجدّان فى السعى ؛ وسكون الليل يثقل شيئاً فشيئاً ، وظلمة الليل تزداد كثافةً من حين إلى حين ، ونفوسنا تريد أن تهيم فى هذا

السكون وتختلط بهذه الظلمة وتود لو احتواها النوم . ولكن أنى لها أن تهيم في سكون الليل وهى مضطربة وأنى لها أن تختلط بظلمة الليل وفى جنباتها هذه الأنوار الضئيلة الشاحبة أنوار التفكير فى غد والتذكر لأمس ، والروية فيما نحن فيه ! ؟ وأنى لها أن تنام وهذه بنات الليل قد أخذت تظهر شيئاً فشيئاً وتدنو منا قليلاً قليلاً ، وتثير فينا هذا الإشفاق البغيض الذى لا يستطيع أن يكون أمناً ولا يبلغ أن يكون خوفاً صريحاً ، وإنما هو قلق خفى ما كره يفسد من حوله كل شيء ! ؟ ونحن نريد أن نقاوم بنات الليل هذه فنغمض أبصارنا حتى لا نراها ونسد آذاننا حتى لا نحس قربها منا ؛ والجمالان يسعيان فى جدٍ ونشاط لا يكاد يأخذ منهما الفتور . ثم يرتفع صوت خالنا غليظاً خفيفاً ، كله شر وكله نكر وكله نذير : هنا يجب أن ننزل . وما هى إلا أن ينام الجمالان ولم تستطع واحدة منا أن تقول حرفاً أو أن تنطق بكلمة أو أن تفكر فى شيء ، وإنما هو ذهول غريب كثيف قد أطبق علينا وملاً نفوسنا كما أطبقت علينا وملأت نفوسنا ظلمة الليل . وهذا خالنا قائم كالشيطان ، وهو يأمرنا فى غلظة وعنف أن ننزل فلن يمضى الجمالان أمامها قيد أصبع .

وها نحن أولاء نزل مضطربات ، ونسعى متعثرات ، وهذه أمنا
تريد أن تسأل فيم أناخة الجملين ، وفيم النزول في غير منزل ،
وها أنا هذه أريد أن أقول شيئاً ولكنى لا أكاد أدير لسانى فى
فى ، ولا أكاد أستوعب ما كانت أمنا تقول ؛ إنما هى صبيحة
منكرة مروعة تنبعث فى الجو ، وجسم ثقيل متهاك يسقط على
الأرض ، وإذا أختى قد صرعت وإذا خالنا هو الذى صرعا لأنه
أغمد خنجره فى صدرها . ونحن عاكفتان على هذا الجسم السريع
يضطرب ويتخبط ويتفجر منه الدم فى قوة كما يتفجر الماء من
الينبوع . نحن عاكفتان فى ذهول وغفلة وبله ، لم نفهم شيئاً ولم
نقدّر شيئاً ولم ننتظر شيئاً ، وإنما أخذنا على غرة أخذاً واختطفنا
هنادى من بيننا اختطافاً . وجسمها يضطرب ويتخبط ودمها يتفجر
ولسانها يضطرب ببعض الحديث فى فمها ، ثم يهدأ الجسم المضطرب ،
ويسكن اللسان المتحرك ، ويخف تفجر الدم ، ويمتلىء الجو حولنا
بهذا السكون الأليم سكون الموت . ونحن فيما نحن فيه من ذهول
وغفلة وبله ، وخالنا قائم أمامنا كالشيطان إلا أنه قد أخذه الدهول
كما أخذنا ...

وهذا نداؤك أيها الطائر العزيز يبلغنى من بعيد ، وهذا صوتك

يدنو إلى قليلاً قليلاً ، وهذا غناؤك ينتشر في الجو ، كأنه النور
المشرق قد أظهر لنا ما كان يغمرنا من الهول دون أن نراه .
وها أنت ذا تبعث صيحاتك يتلو بعضها بعضاً ، كأنما هي سهام
من نور قد تلاحت مسرعةً في هذه الظلمة فطردت عن نفسى
ذهولها وجلت عنها غفلتها وأيقظتها من هذا البله ، وجلت لها
الجريمة منكراً بشعة ، والمجرم آثماً بغيضاً ، والضحية صريعةً
مضرجةً بالدماء ...

إن صوتك لم يوقظنى وحدى وإنما أيقظ أمنا فما هي هذه
تفريق وها هي هذه تسأل أخاها : أو فعلتها يا ناصر ! ؟ وها هي
هذه تفرق في بكائها السخيف بكاء الأنثى المستسامة التى لا تملك
حولا ولا طولا إلا سفح الدموع . ويلك أيتها المرأة البائسة ! إنك
لتستطيعين أن تسفحي دموعك إلى آخر الدهر فلن تغسلى قطرة
من هذا الدم الذكى . ويلك أيتها الأم الأثمة . إنك لن تستطيعي أن
تردّى نفسك إلى البراءة والأمن .

نعم ، إن صوتك أيها الطائر العزيز قد أيقظنى وأيقظ هذه الأم
المجرمة التى سفكت دم ابنتها بيد أخيها ، وأيقظ هذا المجرم فنبه إلى
أن جريمته يجب أن تخفى وإلى أن آثار إثمه يجب أن تزول .

ولكنه لم يوقظ هنادى وما كان ينبغي له أن يوقظها لأن صوتك مهما يقوى ومهما يعذب ومهما يلح فلن يستطيع أن ينفذ من أستار الموت . إنك لترسل صيحاتك متصلة متلاحقة وإني لأنشط مثلك للصياح ، وإن صوتينا ليملآن الفضاء العريض من حولنا ولكنهما لا يصرفان هذه المرأة عن بكائها السخيف ، ولكنهما لا يصرفان هذا الرجل عما هو مقبل عليه من إخفاء هذا الجسم فى هذه الحفرة التى لم يفارقنا آخر النهار إلا ليهيئها .

لقد تمت الجريمة وبلغ الكتاب أجله ، واستنفدت هنادى حظها من الحياة ، وماتت لأن شاباً آثماً أغواها ولأنها لم تحسن أن تدفع عن نفسها غوايته .

إن صوتك لينبعث فى الفضاء مستغيثاً وليس من يغيث ، وإن صوتى لينبعث فى الفضاء داعياً وليس من يجيب ، وإن هذا الرجل المجرم ليفرغ من إخفاء جريمته ومحو آثارها ثم يلتفت إلى هذه المرأة وإلى ويقول فى صوت متهدج فيه الرعب وفيه الخوف وفيه النذير : هلم فقد آن أن نرتحل ، فإذا أبطأنا عليه ردّد هذه الكلمات فى صوت أشدّ ترويعاً وأكثر امتلاءً بالنذير . ثم يمثل أمامنا ويقول :

تعلمان والله أن هنادى ذهبت مع من ذهب من أهل المدينة بهذا الوباء ألم بها منذ أسابيع !

أما أنا فقد انقطع عني صوتك أيها الطائر العزيز قليلاً قليلاً ،
وانقطع عني صوت خالي ، ثم انقطعت عني الأشياء كلها أو انسلت
من الأشياء كلها ، وإني لأراني أمرض في بيت خشن حقير .

(١١)

متى بلغت هذا البيت ؟ وكيف بلغت ؟ وأي طريق سلكت
إليه ؟ وكـم من يوم أو كم من أسبوع لبثت فيه ؟ وكـم من يوم أو
من أسبوع احتملت أثقال هذا المرض الذي أخذت غمراته تنجلي
عني لحظات في كل يوم ثم لا تلبث أن تتابع وتتراكم ويركب
بعضها بعضاً وتأخذني من كل وجه فأجهل نفسي وأجهل من حولى
كل شيء وكل إنسان ، ولا أحس ولا أرى حين أغرق فيها
وحين أخرج منها إلا هذه الصورة المنكرة البشعة التي لا أذكرها
الآن ولم أذكرها قط إلا جرت في جسمي رعدة عنيفة مؤلمة
وأخذ نفسي اضطراب لا حد له ؟

أسئلة ألقيتها على نفسي ألف مرة ومرة ، وسألقيها على نفسي
ألف مرة ومرة ، فلم أظفر ولن أظفر لها بجواب . وإنما أذكر صوتك
أيها الطائر العزيز وهو ينحف في أذني ، ويفني قليلاً قليلاً كأنه

صوت المودّع يبلغ المسافر والقطار يبعد به عنه شيئاً فشيئاً . إنما أذكر لك الصوت البشع الجرم صوت خالنا الآثم وهو يتهدّج ويبعد عني شيئاً فشيئاً في ثقل وبغض واشمئزاز . . .

إنما أرى قطعة من الليل تسعى إلى سعيها هادئاً أول الأمر ولكنها تسرع شيئاً فشيئاً ، وهذه الظلمات تتكاثف من حولي كأنها الأمواج العظام ، وهذه الأصوات تنقطع وتبعد ، وهأنا هذه يغمرنى الموج وأدخل في الليل فلا أحس شيئاً ولا أرى شيئاً ولا أشعر بشيء . ياله من نوم عميق طويل ! إن الأحلام قد ألحّت عليه ، فهي تروّعني فيه ترويعاً متصلًا ليس إلى انقطاعه من سبيل .

أكنت نائمة ؟ أكنت مستيقظة ؟ أكنت مريضة ؟ أكنت صحيحة ؟ أكنت عاقلة ؟ أكنت ذاهلة . لا أدري إنما أعلم أنني كنت شاعرة شعوراً غامضاً ولكنه قوى ملتحّ كأني قد أقمت إلى ينبوع يتفجر أمامي من الأرض في مكان رحب ، بعيد الآفاق لا يقوم فيه شيء ، ولا تقع العين فيه إلا على هذا ينبوع وعلى ظل مقيم عنده لا يريم ، وعلى ظلال أخرى تجيء كأنما أقبلت تزور هذا الظل ، فهي تلمّ به حيناً وكأنما تناجيه وكأنه يسمع منها وكأنه يردّ عليها ، وكأنني أسمع نجوى هذه الظلال ولكني

لا أحقق ما أسمع ، وكأني أفهم نجوى هذه الظلال ولكنى لا أتبين
ما أفهم . . . وأنا جامدة هامدة لا أحس ولا أرى إلا هذا الينبوع
الذى يتفجر فى غير انقطاع ، وهذا الظل الذى لا يتحول عنه وهذه
الظلال التى تعشاه بين حين وحين . يا له من ينبوع كرىه
أودّ لو أحول عيني عنه ، ولكن حمرة تجتذب عيني إليه اجتذاباً !
إنه لينبوع غزير ، ولكنه لا يتفجر منه الماء ، وإنما تتفجر منه
الدماء . يا له من ظل حزين كثيب شاحب مسرف فى الشحوب أحاول
أن أغمض عيني وأن أغلق نفسي فلا أحسّ له محضراً ، ولكن شحوبه
يستهوئ نفسي ، ولكن حزنه يمزق قلبي ، ولكن إنحنائه على هذا
الينبوع يملأني لوعة وروعة وابتئاساً ! يا لها من ظلال تذهب وتجيء
هادئة لا تكاد تشعر ولكن فى حركاتها ما يملأ النفس جزعاً وهلعاً !
ما لى لا أثبت عيني فى هذا الظل المقيم ، وما لى لا أثبت عيني فى
هذه الظلال المضطربة التى تذهب وتجيء ؟ أنا أم مستيقظة ؟ أعاقلة
أنا أم ذاهلة ؟ أأست أتبين فى هذا الظل المقيم ملامح أختي فما لها
إذن لا تكلمنى . . . وما لها إذن لا تدعونى . . . وما لها إذن لا تناجينى ؟
لقد عرفتها محبةً لى واثقةً بى مطمئنةً إلىّ ، فما لها لا تظهر لى شيئاً
من هذا الحب ، ولا تبدى لى شيئاً من هذه الثقة ، ولا تبين لى عن

شئ من هذا الاطمئنان ؟ إنما هي مكسبة على هذا الينبوع تنظر فيه كما تنظر الفتاة الجميلة في المرأة . عمّ تبحث في هذا الينبوع ؟ أتراها تلتمس صورتها في هذا الدم المتدفق ؟ وما لها لا تكلمني ، أليست تراني ؟ ما لها لا تجيبني ، أليست تسمعي ؟ ما لها لا ترقّ لي ولا تعطف عليّ ؟ أليست تسمع هذا النداء الذي ينبعث من فمي باسمها في صيحات قوية عنيفة متلاحقة ؟ ! أني لأسمع هذه الصيحات ولكني لا أرى من أختي أنها تسمعها ، وكأن هذه الصيحات تخفيها وتزعجها ! فهذا ظلمها يستخفي وتستخفي معه الظلال الأخرى ، ويستخفي معها الينبوع الأحمر ، وهؤلاء أشخاص آخرون يسرعون إلى ويدنون مني ويستجيبون لي ، فلا أكاد أنظر إليهم حتى أتبينهم ، ثم أخافهم ، ثم أبغضهم ، ثم أتقي محضرهم بالصمت والهدوء . . . إنهم أهل الدار قد سمعوا صياحي فأقبلوا يرققون بي ويسألونني عما أجد .

أنهم أهل الدار ، وما أشدّ بغضي لأهل الدار . إني لأرى بينهم أمي وإني لأكره أن أرى أمي . كلا ! لا أكفّ عن هذا الصياح لعل أهل الدار أن ينصرفوا عني فيجنبوني محضرهم الكريه إني لأخذ نفسي بالصمت وأكره نفسي على الهدوء ، وما هي إلا لحظات صامتة هادئة حتى يسدل ستار ويرفع ستار . وهذا الينبوع الأحمر

يتفجر من الأرض قوياً غزيراً ، وهذا ظل أختي ما كئناً لا يريم ،
وهذه الظلال تذهب من حوله وتجيء . إن لى بهذه الظلال لعهداً
لقد رأيتها ولقد سمعت عنها حديثاً ، لقد حدثتني عنها أختي فى تلك
الليلة التى قضيناها مروعتين حين أقبل خالنا يدعونا إلى سفره الآثم .

نعم إن لى بهذه الظلال الحمراء ظلال مرتا وأمينة ومُلزمة
تلك التى كانت تتراءى لنا فيملاً قلب أختي فرقاً وهلعاً وروعاً . . .
إن لى بهذه الظلال لعهداً وإنى لأعرفها وإنى لأفهم الآن إلحاحها
بالزيارة على هذا الظل المقيم . لقد أقبلت تحييه وتواسيه وتبته ما وجدت
من ألم وحزن ، وتسمع منه ما وجد من شقاء وبؤس . إن نجوى
الظلال لغريبة . . . ليتنى استطعت أن أفهمها ، ليتنى استطعت أن
أستحيل ظلاً فأفهم حديث الظلال ! ما بال أختي لا تناجيني ، أتراها
لا تحس محضرى ، أم ترها لا تعرف كيف تتحدث إلى أو تفهم عنى ؟
أتغير لغة الناس إذا ماتوا ؟ ! لقد حدثونا أن للموتى حديثاً يلقيه
إلى الأحياء فيفهمه عنهم الأحياء . . .

إنى لأعرف هذه الظلال . لقد كنت فى ضلال إذن حين كنت
أزعم لأختي فى بعض الطريق أن الأشباح بنات الليل ، وأنها
تكره ضوء النهار ولا تستطيع أن تظهر فيه ؛ والظلال ملحة فى المثل

أماى لا يصرفها عنى مطلع النهار ولا يصرفها عنى مقدم الليل . إن
الظلال إذن لا تهاب نوراً ولا تألف ظلمة ، ولعلها لا تعرف نوراً
ولا ظلمة وإنما نحن يغشينا ضوء النهار فلا نرى الظلال التى تحيط
بنا وتضطرب من حولنا وترى كل ما نأتى وتسمع كل ما نقول .
ولعلها تثرى لنا ، ولعلها تسخر منا ، ولعلها لا تفهم عنا شيئاً كما أننا
لا نفهم عنها شيئاً . يا للهول إن تدفق ينبوع ليشتد ، وإن الدم
لينتشر من حوله إنتشاراً ، وإن الحمرة لتصبغ كل شىء من حولى ،
وإن هذه الظلال لتدنو منى كأنها قد عرفتنى وكأنها تريد أن
تقبلنى ! يا للهول ، إن الروح ليملاً قلبى ، وإن الصياح ليتفجر
من فى فيملاً الجو من حولى كما ينفجر الدم من ينبوع فيصبغ
الأرض بحمرته ، وإن أهل الدار ليقبلون على ، منهم الجزع ،
ومنهم المطمئن ، وهم يرفقون بى ويعطفون على . . . !

وهذه أُمى ، يا للهول ! ما أسمع هذا الوجه وما أقبح هذه الصورة
وما أشد بغضى لهذا المحضر ! إنها لتدنو منى وإن الدم ليجمد فى
عروقى لمقدمها . إنها لتضع على رأسى خرقه مبللة وإنى لأجد لبرد الماء
شيئاً من الراحة ، ولكن لينصرف عنى هذا الوجه فإنى أكره
أن أراه ، لتردّ عنى هذه المرأة فإنى لأخشى أن تقتلنى . . . وكيف

أخلص منها وكيف آمن محضرها إلا إذا آويت إلى الصمت
ولجأت إلى الهدوء ؟ إنه لعذاب أليم هذه الحياة بين ينبوع
الأحمر والظلال المطيفة به إن آثرت الهدوء ، وبين أهل الدار
وهذه المرأة البغيضة إن آثرت الصياح . أليس لي سبيل إلى الراحة
من هذا العناء ؟ ما أكثر ما طلبت هذه الراحة وألححت في طلبها ،
وما أكثر ما فرّرت مني وامتنعت عليّ ، وما أكثر ما خيل إليّ
أنى أجرى في إثر شيء أتمناه أشدّ التمني وأحرص عليه أعظم الحرص
وأجدّ في طلبه كل الجدّ ، حتى إذا بلغته أو كدت أبلغه كانت
منه وثبة فإذا المسافة بيني وبينه واسعة وإذا الأمد بينه وبينى
بعيد ، وإذا أنا معذبة أشدّ العذاب بالاضطراب الملحّ المضى بين
وجوه أهل الدار التى أكرهها ، وهذا الظلال التى يؤذيني منظرها
ويثير فى نفسى ألماً لا آخر له . . .

ولكننى أستقبل النهار ذات يوم هادئة النفس مستريحة الجسم ، قد
ألحّ الضعف عليّ فما أكاد أتحرّك . على أنى أجد فى هذا الضعف نفسه
دعة وأمناً فأستعذبه وأستلذه وأستسلم له استسلاماً ، وأجد فى نفسى دهشاً
لذيذاً حلواً لأننى أفتقد شيئاً كنت أخاف أن أجده ، أفتقده افتقاد
السعيد بالنجاة من شر يخشاه . فقد يخيل إلى أن قد بعد العهد بينى

وبين الظلال والينبوع ووجوه أهل الدار ، وأنى قد قضيت وقتاً غير قصير لم أر حمرة الينبوع ولم أشهد اضطراب الظلال ولم يرتفع صوتي بالصياح ولم يسرع إلى أهل الدار . ثم لا أكاد أتمثل هذا كله حتى اجتهد ما استطعت في أن أزدود هذه الخواطر عن نفسى مخافة أن يطول تفكيرى فيها فيكون ذلك استحضاراً لما أتمثلته من الهول ، ودعاءً لما أجد من السعادة في الإفلات منه ، ورفعاً للمستار عن الينبوع الذى يتفجر منه الدم والذى تطيف به الظلال . فأنا أزدود هذه الخواطر عن نفسى ، وأستسلم لهذا الضعف الذى أجده ، وأود لو بقيت كما أنا هامدةً خامدة لا أقدر على شئ حتى على التفكير . ولكن هذه هى أسمى تدنو منى وعلى وجهها الكئيب شئ من آيات الرضى ، وهى تقول لى فى هذا الصوت الذى يخيل إلى أنى لم أسمعته منذ زمن بعيد : لقد نمت الليلة كلها يا آمنة ، فأنت بارئة ، وما أرى إلا أنك ستسرعين نحو الشفاء . ليتها لم تقبل على ، وليتها لم تدن منى ، وليتها لم تتحدث إلى ! فقد أقشعر لقربها بدنى كله ، واضطربت لصوتها نفسى كلها ، أخذت غشاوة غريبة تلقى على عيني ، وأخذت الأشياء تضطرب من حولى اضطراباً وآذانى هذا كله أشد الإيذاء حتى كدت أصبح لولا أنى

(٧)

حبست صيحتى فى حلقى ولكن لم أستطع أن أمسك يديّ وأن
أمنعهما عن أن ترتفعا إلى عينيّ لتردّا عنهما منظر هذه الأشياء
الراقصة ، وظنت الأم البائسة أنى أبقاها فولّت باكية ، ووجدت فى
انصرافها عنى سروراً وراحة ورضى .

ولا بدّ مما ليس منه بدّ ، فلم يكن سبيل إلى أن تمتنع أمى عن
عيادتي والعناية بى ، ولم يكن سبيل إلى أن أرفض لقاءها وأخلص
من محضرها ، ولم يكن بدّ من أن تنظر إلىّ وأنظر إليها ومن أن
تتحدث إلىّ وأسمع منها وأردّ عليها رجع الحديث ؛ ولم يكن ذلك
دون أن يثير فى نفسى من الموجدة والغیظ ما كان يردّنى أحياناً
إلى بعض ما كنت فيه ؛ ولم يكن ذلك دون أن يثير فى نفسى
هذه المرأة البائسة آلاماً إلى آلام وشقاء إلى شقاء فترسل عباراتها
حيناً وتهديتها حيناً آخر ، وربما أثار فى نفسها غضباً تجتهد فى
حبسه أن ينفجر . وأنا أدنو إلى البرء وأستزيد من القوة وأستردّ
النشاط قليلاً قليلاً ، وآتى بعض الحركات اليسيرة فأجلس وقد كنت
لا أستطيع الانتقال ، ثم تشوب الحياة إلىّ فى قوة كأنما كان
بينها وبينى سد ، فلما أزيل أخذت تغمرنى من كل وجه ،
وإذا أنا أنهض وأسعى ، وإذا أنا أسترّدّ حظّاً من القوة غير قليل

وأجد رغبة في كل شيء إلا في الحديث . وأمی تدور حولي
وتتلف لي وتغلو في العناية بي ، وتود لو تجد إلى نفسي سبيلا ،
وتنفق جهوداً مثيرة للرثاء تريد بها أن تصل أسباب الحديث بينها
وبيني ، ولكنها لا تصل مما تريد إلى شيء ، وقد ألقى بين نفسها
ونفسي سور صفيق فهما لا يلتقيان . ومع ذلك فإن خاطراً من
الخواطر كان يتردد في نفسي تردداً لا يكاد ينقطع وكنت أدافعه
دفاعاً متصلاً لأنني كنت أجد في اضطراب نفسي به ألماً فيه
الخوف والرعب وفيه البغض والحقد . فقد كنت أسأل
نفسي وأريد أن أسأل أمی أو أن أسأل بعض من
حولي عن خالنا ذلك الشيطان الآثم المرید أين هو وأين
استقرت به الدار ؟ فما أذكر أن صورته البغيضة تمثلت لي فيما كان
يتمثل لي من الصور أثناء العلة ، وما أذكر أنني سمعت له ذكراً أو
عرفت من أمره خبراً منذ أخذ البرء يسعي إلى ويدب في أعضائي ،
وما أذكر أن أحداً من أهل الدار قد أشار إليه أو ألم بالحديث
عنه منذ أخذت أخالط أهل الدار وأشترك معهم في بعض شؤون
الحياة . وكنت مع ذلك أريد أن أعرف من أمره بعض الشيء ،
أو كره أن أعرف من أمره بعض الشيء ، أحي هو أم ميت ؟

أأفلت بجريمته أم أخذه السلطان ؟ أمقيم هو في القرية أم ذهب هو في الأرض يلتمس مأمنه بعد الإثم وراء هضبة من هذه الهضاب ؟

ما أكثر ما ترددت في نفسى هذه الأسئلة وما أكثر ما جاش بها صدرى وما أكثر ما همّ لسانى أن ينطق بها ، ولكنى كنت أحبسها في ضميرى حبساً خوفاً منها وبعضاً لهذا الرجل الأثيم . على أنى لم أستطع ذات صباح أن أملك من أمرى ما تعودت أن أملكه فسألت أُمى وقد خلوت إليها ، سألتها وأنا أكاد ألوى وجهى عنها : أين هو ؟ وما أسرع ما فهمت عنى ، وما أسرع ما أجابتنى وهى تشير إلى بالصمت : لقد ذهب إلى الواحات فيمن ذهب . قالت ذلك وانهمرت دموعها غزيرة سخينة ، ولكن بكاءها لم يدع بكائى وحزنها لم يثر حزنى فقد كان بين نفسها وبينى سور صفيق . لقد ذهب إلى الواحات فيمن ذهب . . . فلم يأخذه السلطان إذن ولم يهرب ملتمساً مأمنه وراء هضبة من هذه الهضاب ، وإنما ذهب إلى الواحات فيمن ذهب من أهل القرية ومن أهل القرى المجاورة يحملون إلى أهلها ثمرات الريف ويحملون إلى أهل الريف ثمرات الواحات . لقد ذهب إلى الواحات فيمن ذهب وكانت نفسه هادئة ، وكان ضميره مطمئناً ، وكان قد نسى إثمه

نسياناً ، وكان قد انجلى عنه هذا الذهول الذى غشيه بعد أن سوى الأرض على ضحيته .

ولم تتمثل له هذه الصور المروعة التى تتمثل لى ، ولم تنهكه هذه الحمى التى أنهكتنى ، وإنما ذهب إلى الواحات فيمن ذهب يبيع ويشترى ، ويتحدث مع رفاقه إذا تحدثوا ، ويلهو مع رفاقه إذا ألهوا ، كأنه لم يأت شيئاً ولم يقترب إثماً ولم يسفك دم ابنة أخته بيده ...

ذهب إلى الواحات فيمن ذهب ، وسيعود إلى الواحات فيمن يعود ، يحمل وجهه البغيض ونفسه المجرمة وضميره الآثم ، ويحمل مع هذا كله تجارة قد ترتضيه وقد ترتضى أهل هذه الدار . وسيلقونه مغتبطين بلقائه ، وسيلقاهم سعيداً بالعودة إليهم لا يحسن الماء ولا ندماً ، وسيرتفع صياح الفرح لمقدمه فى هذه الدار ، وسيرتفع صياح الفرح فى القرية كلها لمقدم العائدين معه من أهل القرية ، وسيقضى الناس هنا أياماً كلها أعياد يملؤها السرور والحبور . وأما أنت أيتها الأخت التعسة البائسة فلن يذكرك فى هذه الدار أحد إلا هذه المرأة التى لا تستطيع أن تذكرك إلا سراً بينها وبين نفسها ، وإلا هذه الفتاة التى لا تكاد تفكر فيك حتى يتراءى لها الينبوع الأحمر والظلال المطفية به فى ذلك الفضاء العريض فتشفق من الجنون !..

ذهب إلى الواحات فيمن ذهب وسيعود من الواحات فيمن يعود . . . حرام على أن أراه ، وحرام على أن أشهد ما سيثير مقدمه من الفرح والابتهاج . إني لعاجزة عن لقاءه ، وإني خليقة إن لقيته أن أفصح من أمره ومن أمرنا ما يريد أن يكون سرًّا . أليست هنأدى قد ذهبت مع من ذهب من أهل المدينة بذلك الوباء ؟ وأشرقت الشمس ذات يوم على أهل الدار وارتفع الضحى ، وافتقد أهل الدار آمنة فلم يجدوها ، ولو أنهم افتقدوها في القرية كلها لما وجدوها ، فقد كانت آمنة في بعض الطريق قد عبرت البحر مصوبةً نحو الشرق . . .

(١٢)

وإني لأراها في طريقها نحو الشرق فيمتلئ قلبي رحمةً لها وإعجاباً بها وخوفاً عليها . وأى قلب لا يرحم فتاة غرّة لم تكد تتجاوز سن الصبي وقد قذفت بها الأحداث في لجة الحياة الممتلئة بالخطوب والأهوال ، وهى وحيدة ليس لها عون ، قد صفرت يدها من كل شيء ، وفرغ قلبها إلا من هذا الحزن اللاذع الذى يفعمه إفعاما ، وعجزت نفسها حتى عن الأمل ، فهى قد فرّت من بيت أسرتها فرارا ، لا تريد شيئاً إلا أن تخلص من هذه البيئة التى لم تكن تستطيع

فيها مقاما ، وتقلت من هذا الشيطان المرید الذى كانت توشك أن
تلقاه إن أقامت أياما .

وأى قلب لا يعجب بهذه الفتاة الغرّة التى لم تكد تتجاوز
الصبي ، والتى فرت من أهلها فهى تسعى لا تلوى على شيء ،
نحيلة هزيلة ، بأسة كئيبة لا تدرى أين ينتهى بها المسير ، ولا
تعرف كيف يتاح لها القوت ، بل لا تفكر فى شيء من هذا ،
وإنما تمضى أمامها مسرعة فى المضى يدفعها عزم لا يعرف
الكلال ، وبغض للشر لا هواة فيه ، وثقة بالعدل
لا حدّ لها .

وأى قلب لا يخاف على فتاة غرة لم تتجاوز الصبي تسعى
وحدها فى الطريق العامة إلى غير غاية ، وقد صحبها الفقر والحاجة
والضعف وحدائة السن وشيء من جمال يغرى بها كل غوى ،
ويطمع فيها كل مفسد ، وما أكثر الغواة والمفسدين فى هذه
الطريق العامة التى تستقيم وتلتوى بين قرى الريف !

لك الله أيتها الفتاة الناشئة ! إلى أين تذهبين ! ألم تفكرى فى
هذه الكوارث والخطوب التى تضمهرها الحياة للضعفاء والبائسين ،
واللضعيفات والبائسات خاصة ، وتتكشف عنها شيئا فشيئا فإذا

هي مصدر خصب للشر والضر ، وينبوع غزير للسيئات والآثام ؟
 ألم تفكرى فى هذه الأفاصيص التى كان يمتلىء بها صباك والتى
 كانت تسلى نهارك وتروّع ليلك ، والتى كانت تمتلىء بأحاديث
 الأغوال وقد تفرقوا على الطريق يعترضون المارّ حين يمر بهم وقد
 انقطعت به السبيل فإذا هم يضمرون له الهول كل الهول ، ويسرون
 له البغض كل البغض ، وإذا هم لا يكادون يتنسمون ريحه وقد
 أقبل من بعيد حتى يتحلب ريقهم قرماً إلى لحمه وعظمه ، وحتى
 تضطرم فى أجوافهم غلّة لا يروىها إلا دمه ، وهو يبلغهم خائفاً
 وجلاً قد ملأ الجزع قلبه وفرّق الملح نفسه ، فإن كان قد حفظ
 الوصية ووعى النصيحة واستعدّ للقاء الغول ابتدره بالسلام فقلّم
 أظفاره واضطره إلى السلم والمودعة ، وإن لم يكن قد حفظ ولا
 وعى ولا هياً نفسه للقاء الخطوب مرّ بالغول فالتقمه التقاماً
 والتهمة التهاماً ، وقطع الوسائل بينه وبين من ترك وراءه ومن
 كان يمضى للقائم أمامه... ؟

ماذا أعددت يا آمنة لهؤلاء الأغوال فإنهم منشون فى الطريق ؟
 ليسوا سبعة كما كانت تتحدث إليك القصص ولكنهم سبعون ،
 بل أكثر من سبعين ، بل مئة ، بل مئات قد انتثروا فى الطريق ،

منهم من جلس ينتظر الفريسة ومنهم من مضى يبتغيها ، منهم من
برز ضاحياً ومنهم من استخفى في الحقول واختبأ في المزارع .
منهم من يظهر مظهر الغول كريهاً خفيفاً لا تكاد تبلغه العين
حتى يمتلىء القلب منه فرقاً وهلعا وحتى تندفع الغريزة إلى اتقائه
ومحاولة اجتنابه والخلاص منه ، ومنهم من يظهر مظهر الرجل
الوديع أو الشاب الرفيق تبلغه العين فيطمئن إليه القلب ، وتأنس
إليه النفس بعد وحشتها ، ثم لا يجد منه إلا جيء إليه إلا غدراً
ولا يظفر عنده الوائق به إلا بالشر والنكر والبوار . منهم من
اتخذ زى الرجل ، ومنهم من اتخذ زى المرأة ، وكلهم غول قد
هياته الأحداث لأمثالك من الفتيات الضعيفات البائسات اللاتي
نبذتهن الأسرة أو اجتثتهن الخطوب من أصولهن فهن مشردات
يستقبلن الحياة جاهلات بها غافلات عنها ، والحياة تلعب بهن ،
تقذفهن من مكان إلى مكان ، وتنقلهن من شر إلى شر ، حتى ينتهى
بهن القضاء إلى الغول الظاهر أو إلى الغول المتنكر ، فإذا هن
فريسة لهذا أو لذلك ، يلقين العار والخزي ، ويلقين البؤس
والضيم ، ويلقين المرض والشقاء ، ويلقين الألم دائماً ، وقد يلقين
الموت أحياناً . . . ؟

لم تفكر آمنة في شيء من هذا حين انطلقت مع الصباح من بيت أسرتها كما ينطلق السهم ، ومضت أمامها مندفعة لا تحس جهداً ولا مشقة ، بل لا تحس حركة ولا نشاطاً ، بل لا تشعر بأنها تمضي كما يمضي السهم لأنها لم تكن تفكر إلا في سجن قد أفلتت منه وهي تريد أن تبعد عنه ، وفي حرية قد دفعت إليها وهي تريد أن تنغمس فيها انغماساً .

فهي تمضي وتمضي لا تتقف ولا تلتفت عن يمين ولا شمال ولا تلتفت إلى وراء ، كأنها بطل من أبطال هذه القصص التي تتحدث بها الجدات والأمهات ، قد مضى لغايته ووعى نصيحة الناصح ، فهو لا يلتفت مخافة أن يدركه البوار إن حوّل وجهه عن طريقه المستقيمة أمامه . والفتاة تسعى مسرعةً تستقبل بوجهها المشرق الكئيب وجسمها الضئيل النشيط ضوء الشمس ونسيم الصبح واستيقاظ الحياة والأحياء ، وما تزال كذلك حتى يغمرها الضحى وحتى تغمرها الحياة التي نشطت من حولها ، وإذا هي مضطرة بحكم الغريزة وبحكم هذا الإعياء الذي أخذ يدرك جسمها الضعيف شيئاً فشيئاً إلى أن تمضي مبطئة وتسعى هوناً . ولا يكاد ينتصف النهار حتى تبلغ البحر وحتى تعبره ، ولا يكاد يتقدم النهار نحو العصر حتى

تكون قد بلغت مأمنها وأفلتت من طلب الطالبين وانتهت إلى قرية من القرى فالت إليها تريد أن تبلغ عند أهلها حظاً من راحة وشيئاً من طعام وأن تنفق عندهم الليل .

نعم إنى لأرانى فى هذه الطريق وحيدة شريدة لا أملك إلا نفسى الضعيفة البائسة ، وإلا جسمى النحيل الضئيل ، وإلا ثياباً باليةً أو كالبالية ، وأنا مع ذلك لا أحفل بما تركت ولا بمن تركت ، ولا أسأل عما أنا مقدمة عليه من الأمر ، ولا عن أنا مقبلة عليهم من الناس ، إنما هو الهيام فى الأرض والسكر بهذا الشراب الخطر الذى نسميه حب الحرية والذى يكلفنا أحياناً من أمرنا شططا . أكنت خائفة . . . ؟ أكنت آمنة . . . ؟ لا أدرى ! وإنما كنت أشعر بالأمرين جميعاً يتعاقبان على قلبى كما يتعاقب الليل والنهار على الأرض وما عليها .

كنت أطمئن إلى أنى لن أرى أمى ولن أسمع صوتها ، ولن أرى أهل الدار وأشاركهم فى شىء ، ولن ألقى ذلك الرجل المجرم ذا النفس الفاجرة والقلب الغليظ ، ولن أخضع لعلاظته ولن أحتمل تقربه إلىّ وترضيه لى ، فيمتلىء قلبى أمناً وهدوءاً وتبتسم لى الحياة عن أجمل الصور وأحفلها بالأمانى والآمال ، وأجد فى ذلك قوة

وشجاعة وصبراً ، فأمضى لا يدركنى الإعياء ولا ينالنى الكلال .
ثم كنت أذكر أختى ولا سيما بعد أن عبرت البحر وأخذت
الطريق تختلط علىّ ، وأخذت أحاول أن أعرف أين انحرف بنا خالنا
الجرم عن الجادة إلى ذلك الفضاء العريض الذى اقترف إثمه فيه .

كنت أذكر أختى فما أكاد أثير ذكرها حتى يثور ظلها
أمامى وإذا أنا أراها ماثلةً ذاهلةً كما تعودت أن أراها منذ تركنا
المدينة ، وإذا أنا أهمّ أن أسعى إليها وأن أمسّها بيدي وأن آخذ
معهما فى الحديث ، وإذا أنا أتنبه للخطب وأتبين الحقيقة الواقعة ، وإذا
ينابيع الحزن تنفجر فى قلبى وإذا الحزن يجرى مع دمي ، وإذا
جسمى كله نار مضطربة ولوعة محرقة ، وإذا دموعى تنهمر على
خدى ، وإذا أنا مضطرة إلى أن أتنبذ ناحية من الطريق لأبكي
على مهل على غير مرأى من الناس .

ثم أنهض مستأنفة للسعى ، وإذا أختى تسيرنى ، وإذا الظلال التى
كنت أراها أثناء الع——لة تطيف بها وتطيف بى ، وإذا ظلال
أخرى تملأ الفضاء من حولى لا أدرى أنجمت من الأرض أم
هبطت من السماء ، ولكنى أراها تكثر وتختلط وأسمعها من حولى
تصخب وتلغظ حتى أخاف على نفسى الجنون .

أنا على ذلك كله ماضية تتقاذفى القرى وتتدافعى الضياع ،
أستضيف هؤلاء حيناً وأسأل هؤلاء حيناً آخر ، أعمل فى الحقول
مرة وأعمل فى البيوت مرة أخرى ، وهذان اللونان من الشعور يختلفان
على قلبى ويتعاقبان على نفسى لا يمهلا نى فى اليقظة ولا يعفيا نى
فى النوم . أنا مضطربة دائماً بين أهلى الذين فررت منهم فراراً ،
وبين أختى وصاحباتها اللاتى يستجبن لى كلما ذكرتهن كأنما يسمعن
دعاءً فيسرعن إلى الداعى . وأنا ماضية أمامى أتقدم نحو الشرق من
يوم إلى يوم ولى من غير شك غاية أعرفها وأسعى إليها ولكنى لا
أكاد أتمثلها ولا أستحضرها ، وإنما أنا أطلبها غير شاعرة بها كأنما
تدفعنى إليها الغريزة دفعا .

أنا ماضية نحو الشرق ، لا أنحرف عن غايتى إلى يمين أو إلى
شمال إلا لأقضى ليلة فى هذه القرية أو لأستريح ساعات أو
لأستريح يوماً فى هذه القرية أو تلك ، ولكنى على جناح سفر
دائماً ، متجهة نحو الشرق دائماً ، ممعنة فى الشعور بالأمن كلما أزددت
من الغاية دنوا ومن المدينة قرباً . فالمدينة إذن هى غايتى من كل
هذا السعى ، فيها ألتمس الأمن وبين أهلها ألتمس الحياة الوادعة !
وبيت المأمور هو غايتى من المدينة إليه ألتجأ والى من فيه أفرع

وبمن فيه أستعين ، في ظله أريد أن أعيش ، وعند أهله أريد أن أودع قلبي ، وعند خديجة من أهله خاصة أريد أن ألتص بالراحة لهذه النفس المعذبة ، والشفاء لهذا القلب المريض . لن آمن حتى أبلغ هذه الدار ، ولن أبلّ من علّتي حتى أرى هذه الوجوه وأسمع هذه الأصوات ، وأستأنف حياتي مع الخدم والسادة كعهدها منذ أشهر قبل أن تأمرنا أمنا بذلك الرحيل المشؤم . إذا بلغت هذه الدار فستقصر يد خالي دون أن تبلغني ، وإذا أطمأن بي المقام في هذه الدار فلم يجد الروح إلى نفسي سبيلاً . ولكن ما خطب أهل الدار وما خطبي إن سألوني أين كنت ؟ كيف أجيبهم . . . وبم أجيبهم ؟ أقص عليهم حديثي كله أم أطويه عنهم طيًّا ؟ بل ما خطب أهل الدار وما خطبي أن رأوني فأنكروني ثم أبوا أن يفتحوا لي بابهم وأن يلقوني بما أحب أن يلقوني به من الرضى والعطف والابتسام ؟ ما خطب خديجة وما خطبي إن رأتني فأعرضت عني لأنها وجدت من فتيات الريف أو من فتيات المدينة من يقوم منها مقامى ويلهيها كما كنت ألهيها ، ويشاركها في الجد واللعب كما كنت أشاركها في الجد واللعب ؟ أين أذهب إذا نبت بي هذه الدار ، وإلى من ألتجأ وعلى من أعول إذا تنكر لي أهل هذه الدار ؟

(١٣)

كلا ! بل هذه الدار كما عرقها رشيقة أنيقة ، مغرية مطمعة ، لا ترد طارقاً ولا تصدّ راغباً ، ولا تتجهم لزائر ولا تنبو بضيف . وإني لأراها من بعيد فأسرع إليها الخطوة كأنما أدفع إليها دفعاً أو كأنما تدعوني ملحةً فاستجيب للدعاء . وإني لأرى دخاناً يصدر عنها وينشر في الجو فلا أتمثل النار التي يصدر عنها في المطبخ وإنما أتمثل الطباخ ومن حوله من الخدم يذهبون ويحيثون وأسمع ما يقولون ، وكأني أشاركهم فيما يأتون من حركة ، وأجاذبهم ما يلفظون به من حديث . وإني لأدنو من الدار فأرى نافذه مفتوحة فلا أتمثل غرفة خديجة وما فيها من أداة وأثاث ، وإنما أتمثل خديجة نفسها قد جلست إلى بعض ما كانت تلعب به ، أو عكفت على درس تستظهره أو كتاب تنظر فيه ، وكأني أشاركها في اللعب أو أشاركها في الاستظهار أو أسمع منها بعض ما تقرأ . وإني لأدنو من الدار فأتمثل حياة الدار كلها كأنها قد غمرتني وكأني قد رجعت إلى مثل ما كنت منذ أشهر جزءاً من هذا الكل ، وشعاعاً منتشراً مستفيضاً في هذه الحياة التي تملأ الدار حركةً ونشاطاً واضطراباً .

وهأنا هذه أبلغ باب الحديقة فلا أتردد في ولوجه ، وأمضى
أمامي مصممةً كأنما أعود إلى الدار بعد ليلة من تلك الليالي التي
كنت أقضيها مع أمي وأختي في ذلك المنزل الحقيق ، وإني لأمضى
كما تعودت مسرعةً لا ألوى على شيء ، وإني لأصعد في السلم لا ألتفت
إلى يمين ولا إلى شمال ، وإني لأبلغ غرفة خديجة فأدخلها وأصادف
سيدتي وصديقتي عاكفةً على كتاب تنظر فيه . ولكننا كنا نلتقي
على الضحك والعبث فما لنا الآن لا نضحك ولا نعبث . . . ؟ ! أما هي
فواجمة ذاهلة قد أخذت على غرة ، وأما أنا فمغرقة في البكاء .

ثم هي تسألني أين كنت . . . ! ومن أين أقبلت . . . ؟ وماذا
صنعت في هذا الوقت الطويل . . . وأنا لا أجيب . وأتني لي أن
أجيب بغير هذه الدموع التي تنهمر ، وهذه الزفرات التي تنفجر ، وهذا
الشهيق الذي يتردد في حلقى متصلاً بعضه ببعض يزداد شدةً وعنفاً
حتى يكاد ينتهي بي إلى أزمة من هذه الأزمات التي تفسد
أعصاب النساء حين يلحّ عليهن البكاء . . . !

وسيدتي وصديقتي قد أقبلت عليّ فتتلف لي وترفق بي وتهوّن
عليّ بعض ما أجد ، وإن كانت لا تعرف شيئاً مما أجد . ثم يسمع
الشهيق وإذا سيدة البيت قد أقبلت ، وإذا هي ليست أقلّ دهشاً

ولا وجوماً من ابتها ، ولكنها تصرف الفتاة عنى صرفاً شفقة عليها من هذا المشهد الذى قد يؤذى نفسها الشابة الناشئة ، ثم تدعونى إلى أن أتبعها ، ثم تهديء روعى وتلطف لى فى الحديث وتسألنى عن أمرى فلا أجيبها بشيء ، أو لا أكاد أجيبها بشيء ، إنما هى جمل متقطعة غارقة فى الدموع ، فيها ذكر للرحيل على غير موعد ، وفيها ذكر للقرية ورؤية أهلنا فيها ، وفيها ذكر لمصاب عظيم قد ألمّ بنا هناك لم نكن ننتظره ولا تقدره ففقدنا أختى ، فيها ضيق بحياة القرية فى ذلك الحزن المتصل ، وحنين إلى السادة الذين لم ألق فى خدمتهم إلا خيراً وبرا ، ثم فيها ذكر العودة المنفردة فى الطريق الطويلة الملتوية المخوفة ، ثم انهمار للدموع وإنكباب على سيدتى أقبل يديها وقدميها كأنى أشفق أن تردنى رداً أو تدفعنى عن الدار دفعاً ؛ ولكنها حدة على ، رفيقة بى ، تقيمنى وتنهضى وتأمرنى أن أذهب إلى حيث أصلح من أمرى وأستأنف عملى فى الدار ، كأنى لم أفارقها أشهراً ، وكأنى لم أفارقها فجأة فى غير استئذان ، وكأنى لم أزد على أن غبت يوماً أو أياماً ثم عدت إلى مثل ما كنت فيه . . ! وأنا أذهب إلى حجرتى فأراها كما تركتها لم يشغلها أحد ، ولم تسكنها خادم بعدى ، ثيابى فيها كما تركتها

وأدواى فيها كما غادرتها لم ينقل شىء منها ولم يحول عن مكانه .
ثم ما هى إلا أن ألقى الخدم ويلقونى بشىء من الدهش والوجوم ،
وأخذ فى بعض الحديث ، ثم انظر فإذا كل شى قد استقر وإذا أنا
واحدة فى الدار من أهل الدار كأن لم يكن بينى وبين الدار فراق .

ثم أعلم ما أعلم من حزن خديجة علىّ ووجدها بى ، وإبائها على
أهلها أن يتخذوا لها خادماً غيرى ونزول أهلها عند ما كانت تريد .

ثم أستأنف الحياة مع السادة والخدم كما كنت أحيها من قبل .
ومع ذلك فما أكثر ما لقيت من الخطوب ، وما أشدّ ما احتملت
من الآلام ، وما أطول ما أنفقت بعيدة عن الدار من الشهور !
وكيف لا تطول هذه الأشهر القصار وقد كان فيها من الأحداث
ما كان ، وقد لقيت فيها من الشر كل ما لقيت ، وقد واجهت
فيها الموت ، وقد عانيت فيها المرض ، وقد تعرضت فيها للجنون
أو لمثل الجنون ، وقد تعرضت فيها لكل ما تعرضت له من ألوان
الفتنة والحنة والخوف . . ؟

إن أهل الدار لا يعلمون من هذا كله شيئاً وهم من أجل ذلك
لا يكادون يشعرون بأنى فارقتهم أو غبت عنهم ، ولكن أنا أعلم
من هذا كله ما أعلم ، وأنا من أجل هذا أشعر بأنى قد فارقتهم

وقتاً طويلاً ، أو أطول مما يظنون وأطول مما أظن ، وأطول مما يحسب الناس أنهم قد نسوا رحلتى ونسوا عودتى وانصرفوا إلى أمرهم لا يفكرون فىّ ولا يسألون عنى . ولكنى أنا لم أنس من هذا شيئاً . بل أنا أشعر شعوراً غريباً ، أشعر أنى قد أخذت من أهل الدار فتاة دفنتها هناك فى قرية بعيدة من قرى الريف تظلمها هضبة من هذه الهضاب التى تلى الصحراء ، ثم رددت عليهم فتاة أخرى لا يعرفونها ولا يعلمون من أمرها شيئاً . أخذت منهم آمنة الضاحكة فى أكثر الوقت ، الباسمة دائماً ؛ أخذت منهم آمنة الغرّة الساذجة التى تؤثر اللعب أو تكاد تؤثره على كل شىء ، والتى لا ترى فى الحياة إلا لعباً ، والتى تخدم وكأنها تلعب وتدرس وكأنها تلعب ، وتتعلم من الخدمة والدرس ما تتعلم وكأنها تلعب ، لا تعرف الهم ولا تتمثله ، ولا تعرف أن للحياة أثقلاً وتكاليف وإنما تؤمن بأن الحياة ابتسام للنهار إذا أشرق ، وابتسام لليل إذا أظلم وابتسام لما يملأ النهار من نشاط ، وابتسام لما يملأ الليل من أحلام ؛ أخذت منهم آمنة التى كانت تنشأ وتنمو كما تنشأ هذه الشجيرات فى الحديقة وتنمو ، فيها نضرة ولين ، وفيها بهجة وجمال أخذت منهم آمنة هذه ففرقت نفسها تفريقاً ، فى الطريق

حين كنت ذاهبةً إلى الغرب تركت بعضها في بيت العمدة الذى ضيّفنا حين سمعت لحديث أختي وحين سمعت لحديث أولئك النساء ، وتركت بعضها لهذه الأشباح الحمراء التى كانت تتراى لنا حين كنا نتحدث على سطح الدار أو حين كان يمضى بنا الجملان فى الطريق الصامتة وقد تقدم الليل وثقل ، ثم تركت أكثرها فى ذلك الفضاء العريض فسال مع الدم الذى سال ، ودفن مع الجنة التى دفنت وسوى عليه معها التراب ثم صبّ عليه معها الماء ، ثم تركت سائرها نهياً لتلك العلة التى ذهبت بما بقى من نفسى وإن أبت على بقية ضئيلة من جسمى أخذت الحياة تعود إليها بعد البرء قليلاً قليلاً .

أخذت منهم آمنة هذه وفرقتها على هذا النحو بين المدينة والقرية ثم ردت عليهم آمنة أخرى قد تشبه تلك فى بعض ملامح الوجه ، وقد تشبهها فيما بقى من اعتدال القامة ، وقد تشبهها فى طبيعة الصوت وبعض الحركات ، ولكنها تخالفها بعد ذلك فى كل شيء .

رددت عليهم آمنة الحزينة دائماً ، الواجحة فى أكثر الوقت حتى كأنها بلهاء غافلة . رددت عليهم آمنة التى رأت الشر بشعاً والإثم عريان والجرم منكراً ، فملأت نفسها من هذا كله وإذا هى سيئة الظن بكل إنسان ، وإذا هى شديدة الإشفاق من كل شيء ومن

كل إنسان ، وإذا هي عابسة للنهار إذا أشرق عابسة لليل إذا أظلم ،
وقد اتخذت لنفسها من ظلمة الليل الخالكة ثوباً كثيفاً ضافياً فأسبغته
عليها إسباغاً وحالت به بينها وبين كل نور وأمل وابتهاج وابتسام .

نعم ، رددت عليهم آمنة هذه التي لا تمسك الدموع إلا ريثما ترسلها ،
ولا تبسط الوجه إلا ريثما تقبضه ، ولا تقبل على شيء إلا ريثما
تنصرف عنه ، ولا ترى في اللعب إلا ثقلاً ، ولا ترى في الخدمة
والدرس إلا عناء وجهداً . ويح أهل الدار ! أيقبلون مني هذه
الفتاة التي رددتها عليهم ويتسلّون عن تلك الفتاة التي أخذتها
منهم ؟ ويحي أنا من أهل الدار إن لم يعرفوني ولم يألّفوني كما
عرفوا تلك الفتاة وألفوها ! ولكنهم قوم كرام لا يضيّقون بي ولا
ينفرون مني ولا يلقونني إلا بالعناية والرعاية والعطف . أو لم أتحدث
إليهم بذلك المصائب العظيم الذي قد ألمّ بنا فملأ قلوبنا حزناً
وبؤساً ؟ وإذن فهم يعزّونني ويأسون جراح قلبي ، وهم لا ينظرون
إليّ كما ينظرون إلى خادم يجب أن تعمل أو إلى رفيقة يجب أن
تعين فتاتهم على ما في الحياة من جد ولعب ، وإنما ينظرون إليّ
كما ينظرون إلى فتاة بأسة قد آوت إليهم فهم يؤوئنها مكرمين لها
مشفقين عليها ، يؤثرونها بالرحمة والراحة والهدوء .

وخديجة . . . ويح خديجة ! ما كنت أحسب أن فتاة نشأت
في مثل ما نشأت فيه من نعيم ، ودرجت على مثل ما درجت
عليه من ترف وتعودت ألا تعيش إلا فرحةً مرحّةً ، ما كنت
أحسب أن هذه الفتاة تعرف كيف تصل إلى أعماق هذا القلب
الحزين ، وكيف تبلغ بغريزتها ما لم يكن بد من التجربة الطويلة
العسيرة لبلوعه بالعقل والإرادة . إنها لتفهمني في غير سؤال ، إنها
لترحمني في غير تكلف ، إنها لترثي لي في غير كبرياء ، إنها
لتنصرف بي عمّا ألفت من فرح ومرح ومن دعابة ولعب ، إنها
لتتحدث إليّ حديث الفتاة العاقلة الرشيدة ، إنها تشغلني عن همّي
بما تقص عليّ من أمرها أثناء غيبتى وبما تقرأ عليّ مما قرأت أثناء
هذه الغيبة وبما تقرأني مما لم أشاركها في قراءته ، إنها لتفتح
لي أبواباً ما كانت لتخطر لي على بال . إنها لتنبئني نبأً عجيب
لم أفهمه إلا بعد مشقة وجهد وتكرار ؛ تنبئني بأنها قد أخذت
تتعلم لغة أخرى تسميها الفرنسية فلا أفهم منها شيئاً ، لغة أخرى !
وكيف يكون ذلك ؟ إني أعرف أن هناك لغة الريف التي كنت
أتحدثها ، ولغة القاهرة التي تتحدثها خديجة ، ولغة ثلاثة نقرأوها في
الكتب فلا نعجز عن فهمها وإن وجدنا فيه بعض العسر ، فكيف

توجد لغة أخرى ، وما عسى أن تكون ، وكيف يتعلمها الناس ؟ .
إنها تظهر لى كتباً ما كنت أقدر أن أراها ، وإني لأنظر هذه
الكتب فلا أفهم منها إلا بعض الصور ، وإني لأحاول النظر في
الحروف فلا أعرف لها أولاً ولا آخراً ، ولا أعرف لها رأساً ولا
ذيلًا ، وإنها لتضحك في رفق ، وإنها لتحس شيئاً من الكبرياء لأنها
تعلم ما لا أعلم ، وإنها لتحاول القراءة في هذه الكتب فتبلغ
من ذلك ما لا أبلغ ، وإنها لتترجم بعض ما تقرأ فأفهم عنها
ما تقول بالعريية وأدهش وينتهى بي الدهش إلى أقصاه ...

وهذا أستاذها السورى قد أقبل وإنها لتلقاه فيتحدث إليها وترد
عليه بهذا الذى لا أفهمه فأزداد بها وبه إعجاباً وفتنة . وهذه خديجة
تكبر فى نفسها وتكبر فى نفسى وتقوم منى مقام المعلم ، وإذا هى
تقرؤنى هذه الحروف التى لم أكن أقرؤها ، تعلمنى هذه اللغة التى
لم أكن أعلمها ، وإذا أنا تلميذة لها فى الصباح وتلميذة معها فى
المساء ، وإذا المعلم بارع وإذا التلميذة على حظ من ذكاء ، وإذا
أنا أجد فى هذه الحياة الجديدة وفيما نقرأ معاً وما نتعلم معاً عزاء
أى عزاء ، ونسياناً أى نسيان ؟ وإذا الأستار تلقى شيئاً فشيئاً بينى
وبين هذا الماضى البشع القريب ، وإذا كل شىء فى هذا الماضى

ينمحي قليلاً قليلاً إلا شخصين اثنين لا ينمحيان ولا يتضاءلان ،
وإنما يرتسمان في نفسى ارتساماً قويا ويتمثلان أُمَامِي تمثلاً متصلًا
ملحاً ، وهما شخص أخى صريعاً يتفجر من صدرها الدم في الفضاء
العريض ، ويغمغم فيها بكلمات لا أفهمها ، وشخص ذلك المهندس
الشاب الذى أغواها ودفعها دفعاً إلى ذلك الفضاء العريض الذى
صرعت فيه .

(١٤)

نعم ، ذلك المهندس الشاب الذى أغواها ودفعها دفعاً إلى ذلك
الفضاء العريض الذى صرعت فيه . لقد منحها الحياة ولقد قضى
عليها بالموت . وهل ذقت البأسة من لذة الحياة ونعيمها إلا هذه
الثمرات الحلوة المرة التى جنتها فى هذه الدار القائمة من دارنا غير
بعيد ؟ إلى هذه الدار دفعت حين هبطت من أقصى الريف
فأخذت تعرف الحضارة وتألفها وتبلو من طيباتها ما رقق لها العيش
وقد كان غليظاً ، وحَبَّبَ إليها الدهر وقد كان بغيضاً .

فيها عرفت الترف واطمأنت إلى النعيم ؛ ولم تكد تنشأ وتنمو حتى
مدَّ لها الحب ذراعين فيهما النعيم والبؤس ، وفيهما الرحمة والعذاب ،

فأسرعت إلى ما كان يترآى لها من ذلك جاهلةً له ، مفتونةً به ،
متهالكةً عليه ، ثم انصرفت كارهةً عما بلت . وما أدرى ماذا كان
يجزئها ويمزق فؤادها تمزيقاً حين كانت تقصُّ على أنباءها وتحديثي
بأحاديثها : أهو الندم على ما قدّمت من ذنب واقترفت من
خطيئة ، أم هو الأسف على ما فارقت من لذة وحرمت من نعيم ؟
وما أدرى ما الذى كان يملأ قلبها فرقاً ورعباً حين كانت تتراى
لها تلك الأشباح الحمراء : أهو الموت الذى كانت ترى نذيره
منكراً بشعاً ومسمعه صارخاً ملحاً ، أم هو اليأس الذى كان
يقطع الأسباب بينها وبين هذا المهندس الشاب ، ويلقى بينها وبين
الحب ولذاته وآلامه حوائل وموانع لا سبيل إلى أن تجتاز ؟

نعم ، هذا المهندس الشاب ! لقد ارتسم شخصه فى نفسى ارتساماً
قوياً ملحاً ليس إلى محوه من سبيل . ولقد كنت أرى أختى فإذا
هو ملازم لها كأنه الظل ، بل كأنه ظل من هذا الظلال الحمراء
التي كانت تلازمها حين كنت أراها أثناء العلة وحين كانت تعرض
الى فى الطريق ! بل لقد تفرّقت عن أختى كل هذه الظلال وأنمحت
محاء ، ولم يبق معها إلا هذا الظل الذى لا أكاد أراه حتى
تضطرب نفسى اضطراباً عنيفاً وحتى يشور فى قلبى شعور قوى مختلط

غريب شديد التعقيد ، شعور فيه الخوف والرغبة ، وفيه البغض ،
وشئ يشبه الحب أو حب الاستطلاع على أقل تقدير ...

من هذا الشاب ؟ أو من عسى أن يكون ؟ وكيف يمكن أن
يكون ؟ أى شئ فيه أغوى هذه الفتاة البائسة ودفعها إلى
ما دفعت إليه ؟ ما عسى أن يكون حظى منه إن لقيته ، وأن
يكون حظها منى إن لقيني ؟ أأحبه أم أبغضه ؟ أأحبني أم يبغضني ؟
ما هذه الغواية التي أفسدت على أختي أمرها وأفسدت علينا جميعاً
أمرنا ، وقضت على أختي بالموت ونعصت علينا جميعاً لذة الحياة ؟
خواطر كانت تملأ قلبي إذا أصبحت ، وكانت تملؤه إذا أمسيت ،
وكانت تلح عليه بين ذلك فلا تردّ عنه إلا في شئ من الجهد
والعنف حين تلح على خديجة في الحديث أو في القراءة أو في
مشاركتها فيما كانت تحرص على أن أشاركها فيه من الدروس
والاستظهار .

خواطر كانت تملأ قلبي في اليقظة ، وكانت تملؤه في النوم ،
وكانت تصرفه عن كل شئ إلا عن هذه الفتاة التي سفك دمها
في ذلك الفضاء العريض ، فذاقت الموت وذهبت نفسها إلى السماء
وهوى جسمها إلى الأرض وهيل عليه التراب ؛ وإلا هذا الفتى

الذى ما زال يغدو ويروح فرحاً مرحاً ، مغتبطاً مستبشراً ، تبسم له الحياة ويبسم هو للحياة .

ليتنى أدرى أذكر ضحيته تلك أم قد نسيها ، وليتنى أدرى أذكرها إن ذكرها فى شىء من الرفق بها والعطف عليها والحنين إليها ، أم يذكرها إن ذكرها فى إعراض الزاهد وانصراف المزدرى ! ؟ وأين تكون هذه الفتاة من نفسه وما أكثر الفتيات فى نفسه ! لقد كان بالقياس إليها كل شىء ، ولم تكن هى بالقياس إليه شيئاً . لم تعرف غيره وعرف هو غيرها كثيرات ، لم تذق لذة الحياة إلا بين ذراعيه وما أكثر المواطن التى ذاق هو فيها لذات الحياة ، وما أكثر ما ذاق من ألوان اللذات وما يلى من صنوف النعيم ! وليتنى أعرف كيف يلقى ذكرها إن ذكرت له ! أيبسم لصورتها أم يلقاها بالعبوس ؟ بل ليتنى أعرف كيف يلقى النبأ البشع المروع إن ألقى إليه ، يحزنه أن يعلم أنها ذاقت الموت وأنها ذاقته لأنه هو قد دفعها إليه ، أم يقع هذا النبأ من نفسه موقعاً يسيراً فلا يثير فى قلبه حزناً ولا أسفاً ولا يسلط على نفسه لوعة ولا ندماً ! ؟

وكذلك امتلأت نفسى بهذا المهندس الشاب حتى لقد كنت

أُتِمِسَ الفرار منه فلا أظفر به إلا في جهد أيّ جهد وعناء أيّ
 عناء ، وحتى لقد أنكرت نفسي وأنكرت من كان حولى من
 الناس والأشياء ، وأنكرنى من كان حولى حين طال عليهم ما كنت
 مغرقة فيه من الوجوم والذهول إلا خديجة فإنها لم تنكرنى ولم
 أنكرها وإنما مضت فيما كانت فيه رفيقة بى ، عطوفاً علىّ ،
 تعزّينى وتسلينى وتفتن فى ذلك ما وسعها الافتنان . وأنا أعرف
 لها هذا فاحمده وأقدّره وأردّ عليها بعض ما كانت تسدى إلى من
 جميل ، فانصرف إليها حين ألقاها عن هذه الخواطر ، ويفرغ قلبى
 لما أسمع من حديثها ولما أشاركها فيه من درس ، ولكن لا أثبت
 أن أعود إلى ما كنت فيه من وجوم وذهول ، وتحس هى منى
 ذلك فتنصرف عنى بعض الشئ وتتركنى لما أنا فيه ، كأنها تقدر
 أنى أجد فى هذا الوجوم والذهول لذة وراحة واطمئنانا .

وما تزال هذه الخواطر تلحّ علىّ وتستأثر بى حتى تستحيل إلى
 شئ من الرغبة القوية الملحة فى أن ألقى هذا الشاب فأسمع
 منه وأحدث إليه ؛ وأنا أتمس أخباره وأتتبع أسرارهِ وأتلقط ما
 يلقى عنه من حديث ، ولم تكن داره بعيدة من دارنا ، وكان
 الظروف قد انتمرت بى فهيات لى أن أرى ذهابه ومجيئه من

نافذتى حين يغدو من داره أو يروح إليها ، من هذه النافذة التى طالما كنت أبادل أختى منها الإشارة وأسارقها منها بعض الحديث . من هذه النافذة التى لم أذكرها ولم أدن منها حين عدت إلى الدار ، وإنما مكثت أياماً وأسابع أجهلها جهلاً وأهملها إهمالاً . ثم خطرت لى فجأة وفرض على مكانها فرضاً ، فإذا أنا أدنو منها وجلةً وأفتحها جزعةً محزونة ، أريد أن أقف إليها لأتمثل فيها صورة هنادى ذاهبة جائيةً ، متغنيةً بما كانت تتغنى به من أغانى الريف ثم من أغانى المدينة . وإنى لأخذ موقفى من النافذة فى الأيام الأولى فلا أرى شيئاً ولا أسمع شيئاً وإنما هو قلب ينفطر ، ودموع تنهمر ، وصورة لأختى لا تأتى من الدار ولا تعبر الى ما بينى وبينها من طريق ، وإنما تأتى شاحبةً حزينة من قلبى هذا الأسف الحزين . وأنا مع ذلك أطيل الوقوف إلى النافذة وأكرره ، وأدنو منها كلما أتيح لى الدنو فى النهار حيناً وفى الليل أحياناً ، ألفها وتألبنى ، وحتى يكون وقوفى منها وجلوسى إليها عادة طبيعية من عاداتى كلما دخلت الحجرة وأغلقت بابها من دونى . والأيام تمضى وتتبعها الليالى ، وإذا أنا أقف إلى النافذة وأجلس إليها فلا تنهمر الدموع ، ولا تتمثل لى صورة أختى شاحبةً كئيبةً ، وإنما أنا أرى

أمامي وأنظر ، فإذا صورة أختي كما كنت أعرفها تذهب وتجيء ،
صوت أختي ينتشر في الفضاء فيملؤه فرحاً ومرحاً وبهجة وسروراً
متغنيةً بهذه الأغنية التي طالما كانت ترددها بصوتها الرخيم الممتلئ
العذب فيحملها الهواء إلى النفوس كأنها قطرات الندى :

آه يانا يانا من غرامه يانا

وإن كنت أحبه ما على ملامه

وما كنت أفهم من هذه الأغنية إلا ما يفهمه الناس جميعاً ،
إن كان الناس يفهمون منها شيئاً ، فهي شائعة ذائعة في المدينة
وفيا حولها من القرى ، تسمعها في كل عرس وتسمعها من كل امرأة
ومن كل فتاة ، بل من كل صبية تحاول الغناء أو تقصد إليه .
أما الآن فإلى أتمثل أختي كمثيلاً حزيناً يائسة كأنها ظل شاحب
ليس له ثبات ولا استقرار ، وإنما هو هائم مضطرب يصدر عنه
صوت ضئيل نحيل كأنه الصدى وهو ينتشر في الجو انتشاراً يملأ
القلوب لوعةً وأسى ، وهو يحمل هذه الأغنية كأنها شرر النار لا تمس
قلباً إلا أحرقتة إحراقاً ، ولا تبلغ نفساً إلا فرقها تفريقاً ! ؟ مالى
أسمع هذه الأغنية فأفهم منها ما لم أكن أفهم ، وأعلم منها ما لم أكن
أعلم ، وأحسّ منها ما لم أكن أحسّ ، وأستكشف فيها من المعاني
والمرامي والأغراض ما لم يكن يخطر لى من قبل على بال ؟

إن هذه الآهة التى يرسلها الصدى النحيف ممتدةً ضئيلةً لا تكاد تثبت ولا تكاد تنتهى لتثير فى نفسى عواطف لم أكن أعرفها ولم يكن لى بها عهد . وإن هذا النداء ليصور لنفسى الأنين كما يصور لنفسى الاستغاثة ، كما يصور لنفسى اليأس من البر حين يتكرر . وإن هذا الاعتذار ليصور لنفسى الهيام فى غير احتفال بالعاقبة ، ولا ندم على ما كان ، ولا تقدير لما هو كائن ، وإنه ليصور لنفسى جرم هذا الخال الأثيم الذى سمع الأغنية ألف مرة ومرة فلم يعقلها ولم يفهمها ولم يبرىء هذه الحبة الهائمة من اللوم ، ولم يعفها من الإثم ، ولم يصرف عنها العقاب لأنه جامد القلب جاف الطبع ، خشن النفس غليظ المزاج ؛ لم يذق لذة الحب ولا ألمه ، ولم يعلم أن من الحب ما يكون فوق اللوم وما يكون فوق الإثم وما يكون فوق العقاب .

نعم ، وإنى لأسمع هذا الصوب الضئيل النحيل ينشر هذا الغناء اليأس الحزين فأتصور هذا المهندس الشاب قد برع جماله حتى أصبح فتنة لا تتقى وسحراً لا يقاوم ، وقد رقّ حديثه حتى أصبح شركاً يصيد القلوب وحبالةً تختلب النفوس ، وقد لطفته حركاته حتى لم يبق للامتناع عليها سبيل . وإنى لأنظر فإذا هذه

الأغنية تشير أمامي صوراً ثلاثاً : صورة هذا الفتى الجميل الرائع يغرى بالإثم ويدفع اليه ، وصورة هذا الشيطان الآثم المرید يأخذ بالإثم ويعاقب عليه ، وصورة هذه الفتاة البائسة اليائسة يتنازعها الإغراء المضنى والعقاب المفنى . ثم أنظر إلى هذه الصور فأسأل نفسى أين أنا منها !

أما خالى فأنى أبغضه بغضاً لا حدّ له ولو ظفرت به لمزقته تمزيقاً . وأما أختى فأنى أرثى لها رثاء لا حدّ له ولو استطعت لرددت إليها الحياة . وأما هذا المهندس الشاب فما أدرى أين يكون مكانى منه أهو مكان المبعضة العدو أم هو مكان الحبة الهائمة ؟ ! إنه النار المضطربة وإنى الفراشة التى تهفو إليها وتكلف بها ولكن عن علم بأنها محرقة مهلكة . . . لأعلمن من علم هذا المهندس الشاب أكثر مما علمت ، وليكونن لى منه مكان لم أكن أقدره . لأطفئن هذه النار أو لأحترقن بلهبها المضطرم !

ومنذ ذلك الوقت أخذت أستيقن بأن حياتى موصولة بحياة هذا الشاب وبأن مقامى فى بيت المأمور موقوت ، وبأن انتقالى منه إلى بيت هذا الشاب محتوم إن لم يتمّ اليوم فسيتمّ غداً .

(١٥)

ولزمت النافذة أقرب منها الدار أثناء النهار وأوائل الليل ،
 كأنما وُكِّلت بجراستها أو تتبع ما يجري فيها . وما هي إلا أن
 أعرف مواعيد غدوّ الفتى ورواحه وخروجه من داره للسمر إذا
 أقبل الليل ، ورجوعه للنوم إذا انتقضى من الليل أكثر من ثلثيه ،
 وإذا أنا قائمة إلى النافذة في هذه المواعيد أراه حين يخرج ، وأراه
 حين يدخل ، ولا تطمئن نفسي لأمر من الأمور أو عمل من
 الأعمال إلا إذا رأيته غادياً أول النهار ورائحاً بعد الظهر . فإن
 حيل بيني وبين ذلك لطاريء من قبله أو من قبلى فهى الحياة
 المضطربة ، والنفس المفرقة ، والفكر المشرّد ، والقلب الذى لا يهدأ
 ولا يستقر .

ثم يشتدّ الأمر بى وتلحّ الرغبة فى هذه المراقبة علىّ ، وإذا أنا
 أتمس الأيام التى لا يخرج فيها من داره مع الصبح فأبقى فيها
 أمام النافذة أترقب ما أرجح أنه لن يكون ، ولكنى أترقبه على
 كل حال لأننى لا أريد أن يفوتنى مخرجه من الدار ، كأنما اتصلت
 به حياتى اتصالاً ومدّت الأسباب المتينة بين هذه الدار وبين قلبى
 (٩)

ونفسى وعينى ، فهى لا تبرح خاطرى مهما تكن الظروف ، وهى
تجذبنى إلى النافذة جذباً . وأنا أحسّ مع ذلك أن هذا ليس
إلا أول الشر ، وأن يوماً قريباً أو بعيداً سيأتى من غير شك
لا تجذبنى الدار فيه إلى النافذة لأراها ولأرى هذا الشاب خارجاً
منها أو عائداً إليها ، بل تجذبنى الدار إلى نفسها لألج بابها وأعرف
أصحابها ، وأتحدث إلى من فيها . ولو أنى أرسلت نفسى على
سجيتها وخليت بينها وبين ما كانت تريد لما تأخر مقدم هذا
اليوم ، ولكنى دافعت نفسى عن هذه الدار دفاعاً شديداً ،
وجادلت نفسى فى الاتصال بها جداً طويلاً ، وظفرت من هذا
الجدال وذلك الدفاع بتأخير اليوم المحتوم أسابيع ، بل أشهراً لست
أدرى أكانت طوالاً أم قصاراً ، ولكنى أعلم أن احتمالها كان ثقيلاً ،
وأنى كنت لا أستقبل اليوم حتى أستيقن أن الهزيمة ستتم فيه ،
ولا أستقبل الليل حتى أثق بأنه لن يتقدّم حتى يكون التسليم
والإذعان . وأمضى مع ذلك فى جهاد نفسى ومدافعتها ، حتى إذا
استقر كل شىء ، وغلقت الأبواب ، وانقطعت سبيلى إلى الدار ،
واضطرت إلى أن آوى إلى مضجعى ، وسجلت لنفسى يوماً من أيام
النصر وأمداً من آماد الفوز ، وأجلت الهزيمة والتسليم إلى غد .

وإني لأرى نفسى ذات يوم وقد تقدم النهار حتى كاد ينقضى
وأخذت طلائع الليل الشاحبة تغزو الأرض ، إني لأراني خارجةً
كالنسلة من دار المأمور ساعيةً كالهاربة التي تحرص على الاستخفاء ،
أدور حول الدار مجاورةً أسوار الحديقة حتى لأكاد أمسحها
مسحاً ، ثم منعطفة بعد قليل ، ثم منطقةً كالسهم حتى أقطع ما بين
الدارين من طريق ، وألج حديقة المهندس ، ثم أسعى هادئةً
مضطربةً معاً نحو البستانى كأنما أريد أن أسأله على شيء ،
حتى إذا بلغته لم أستطع أن أقول له شيئاً ، وإنما وقفت أمامه
ذاهلةً غافلةً بلهاء يملكنى الخوف ويغمرنى الحياء . أريد أن أمضى
أمامى حتى أدخل الدار وأبلغ غرفة هنادى فأقضى فيها لحظة
أو لحظات ، ولكنى لا أستطيع أن أتقدم ، والبستانى يسألنى من
أنا ومن أين أقبلت وماذا أريد ؟ فإذا ألحَّ علىَّ فى السؤال
وأحسست أن صمتى يطول وأن الرجل سينتهى إلى الضيق بى وبما
أعرض عليه من غفلة وبله وذهول ، وليت مدبرة وانصرفت
نافرة لا ألوئى على شيء ، كأننى أخشى أن يتبعنى تابع ، أو يتعقبنى
متعقب . وما أزال أشتدُّ فى العدو حتى أبلغ دارنا فأنسل إليها
لم يشعر بخروجه منها ولا بعودتى إليها أحد ، ثم أمضى متجاهلةً

متغافلة حتى أبلغ غرفتي وأخذ موقفي من النافذة وقد سجلت على نفسي بعض الهزيمة وإن لم أنته بها إلى الغاية .

على أني ألفت الطريق بين هاتين الدارين ، وألفت البستاني والاختلاف إليه والأخذ معه في أطراف من الحديث وتبادل الإشارات معه من النافذة ومسارقه بعض الكلام .

ثم لم تتصل الأيام بيني وبين هذا البستاني حتى كان الظاهر من أمر هذا المهندس الشاب عندي واضحاً معروفاً ، أعرف من عاداته وأطواره ومن ذهابه وإيابه ومن جده وهزله ما يمكن لمثلي أن يعرفه حين يتصل بخدمه والمقربين إليه .

على أن المعرفة لم تقتصر على البستاني وإنما تجاوزته إلى الخادم ، فقد كان هذا المهندس لا يستطيع أن يكتفي ببستانيه وإنما هو في حاجة إلى خادم تصلح من أمره وتشرف له على نظام الدار . وقد علمت أن أختي لم تسكد تفارقه حتى تعجل البحث عن من يخلفها ، واهتدى بعد قليل من الوقت إلى هذه الفتاة الجميلة الوداعة ذات الوجه المشرق والجسم البضّ والعقل الضيق القصير . أهتدى إلى سكينه هذه التي أقامت عنده خليفة لأختي والتي كنت أتحدث إليها فلا أرى عندها غناء ، ولا أجد في الاستماع إلى أحاديثها

لذة ، ولا أجد نشاطاً إلى أن أشاركها فيما تخوض فيه من لغو .
ولكنى مع ذلك كنت حريصة كل الحرص على أن تشتدّ الصلة
بينى وبينها وتزول الكلفة ، ولم يكن فى هذا مشقة ولا عسر ، فما
أسرع ما اتصل الحديث ، وما أسرع ما اتهمنا به إلى الدخائل والأسرار ،
وما أسرع ما أحسست فى نفسى عداوة آئمة تشتدّ كل يوم وتنمو
حتى تملأ قلبى وتملك على كل أمرى وتكاد تخرجنى عن طورى
وتدفعنى إلى ما لا خير فيه . فقد فهمت — وليتنى لم أفهم —
أن سكينه لم تخلف هنادى على الإصلاح من أمر الدار والقيام
بما تحتاج إليه من خدمة فحسب ، وإنما خلقتها على قلب هذا
الشاب إن كان لهذا الشاب قلب ، بل خلقتها على هواه ومجونه
وعلى إثمه وغوايته .

وما أكثر ما لهذا الشاب من الهوى والمجون ، ومن الإثم
والغواية ! إنما هو صائد يحتبل الفتيات احتبلاً ويختلبن اختلاباً ،
يصرفهن عن الجادة وينحرف بهن عن القصد ، حتى إذا بلغ منهن
ما يزهده فيهن خلّى بينهن وبين ما ينتظرهن من الموت أو من
حياة هى شر من الموت .

وإذن فقد خان هنادى ولم يحفظ لها عهداً ولم يستبق لها
موده ، ولم يكد يفارقها حتى انصرف عنها وزهد فيها والتمس لذته

وهواه حيث استطاع ، لم يحفل بما قدّم من سوء ، ولم يحفل بما قدّمت إليه من تضحية ، ولم ينظر إلى هذا كله إلا على أنه لعب ينفق فيه الوقت ويستعان به على احتمال الحياة وتسلية الغربة في مدن الأقاليم .

هو خائن إذن ، وهو يضيف إثم الخيانة إلى إثم الغواية ، وهو خليق أن يلقي جزاء هذين الإثمين كأشنع ما يكون الجزاء ، وهو لاقٍ حظه من هذا الجزاء في يوم من الأيام ، ولاقيه من يد آمنة هذه التي شهدت الموت مرتين ، شهدته حين عدى على أختها من يد ذلك الخال الأثيم في ذلك الفضاء العريض ، وشهدته حين عدى على ذكرى أختها من يد هذا المهندس الشاب الغاوى وفي هذه الدار الصغيرة الأنيقة التي يقوم عليها البستانى وتضطرب فيها سكينه كما كانت تضطرب فيها هنادى .

أغيرة هذه التي تضطرب في قلبى اضطرماً وتحبّب إلى التفكير في الموت وكيف يساق إلى الناس ، وتحبّب إلى التفكير في الخناجر التي تمزق الصدور وفي السم الذى يمزق الأحشاء ؟ أغيرة هذه التي يغلى لها الدم في عروقى ويصعد لها اللهب في وجهى وتقذح لها عيناي بشيء كأنه الشرر ، يحمل أهل الدار على أن

ينكروا منظرى وعلى أن يتساءلوا ما خطبى وإلى أى حال سينتهى
بى ما أنا فيه من الدهول ! ؟

أغيرة هذه التى ذاتت الحزن عن نفسى وأقامت مكانه غضباً
ثائراً متصلاً لا يهدأ ولا ينقضى ؟ ولن أغار أو على من أغار ؟
أغائرة أنا لهذه الأخت البائسة التى ذاقت الموت فى سبيل هذا الفتى
دون أن يكون لتضحيتها أهلاً ؟ أغائرة أنا لهذه الرغبة التى كانت
تملاً نفسى وتملك قلبى وتدفعنى دفعاً إلى أن أعرف من أمر هذا
الشاب ما كنت أجهل ، والتى لم تكذب تبلى غايتها حتى انتهت إلى
يأس مهلك لا يخرج منه ولا آخر له ؟ أغائرة أنا لهذا التفكير
الطويل فيمن لم يكن أهلاً للتفكير ؟ لمن هذه الغيرة وعلى من
هذه الغيرة ، أو إلام تريد أن تنتهى بى هذه الغيرة ؟

لا أدرى . ولكن أعلم أنها قد جعلت منامى فى دار المأمور
عسيراً وعشرتى لخديجة شاقة ، فقد توحشت أو كدت أتوحش
وأصبحت نافرة من كل شىء حتى من خديجة التى لم أكن أظن
أنى سأعرض عنها فى يوم من الأيام . وقد أخذت أحس أن
مقامى قد يثقل ، وأن عشرتى قد أخذت تشق على من حولى ،
وأن خديجة قد أخذت تجزئنى جفاءً بجفاء وإعراضاً بإعراض .

لك الله يا آمنة ! إلام تدفعك هذه النفس المضطربة التي
لا تهدأ ، وهذه العواطف الثائرة التي لا تستقر ، وهذا القلب
الهائم الذي لا يعرف ما يريد . . . ! ؟

(١٦)

وأصبحت ذات يوم فإذا شيء غريب يضطرب في جو الدار
أحسّه ولا أتبينه ، وأشعر به ولا أحققه ، ألحّه في وجه المأمور وفي
وجه ربة البيت حين ينظران إلى خديجة ثم يسترقان نظراتٍ فيها
أمل مبتهج وحزن مكتئب ، وحين يخلوان للحديث بعد الغداء
أو بعد العشاء فتطول بينهما الخلوة أكثر مما تعودت أن تطول .
وألحّه في هذا الابتسام الذي يهديه المأمور سخياً كريماً إلى أهل
الدار جميعاً متحدثاً إلى من لم يكن يتحدث إليه ، متلفظاً لمن لم
يكن يحفل بوجوده ، وفي نظرات طويلة يلقيها على أنا حين يلقاني ،
وفيما تظهر ربة البيت من تبسط مع الخدم وعطف عليهم والميل
إلى أن تأخذ معهم بأطراف الحديث .

ألحّه في هذا كله ، ولكنني أجد فيه غموضاً يثير ميل إلى
الاستطلاع ويكاد يسليني بعض الشيء عن المهندس الشاب وعمّا

يقع في داره من خيانة وإثم وعما يشير في نفسى من غضب وغيرة .
وأهم أن أسأل خديجة عن هذا الذى ألحه ولا أستبينه ولكنى
أجدها غافلة لا تلمح شيئاً ولا تحس شيئاً ، فأعرض عما هممت به
وأكتفى بالملاحظة والانتظار . على أن الانتظار لم يطل فما تنقضى
أيام قليلة حتى تظهر حركة في دار المهندس الشاب تستتبع حركة
في دارنا ، ثم تتلاحق الحوادث مسرعة وإذا هى تملكى وتغمرنى
وتستأثر بى وتنسينى كل شىء وتذكرنى بكل شىء في وقت واحد ،
وتخرجنى من هذا السكون اليأس الذى لزمته إلى نشاط يأس
دفعت إليه دفعاً .

هذا بيت المهندس الشاب قد ظهرت فيه الحركة وكثر فيه
الاضطراب ، فأنثائه ينقل من مكان إلى مكان ويناله الإصلاح
والتنظيف والترتيب ، ويؤتى إليه بأثاث لم يكن فيه ، بعضه
مشتري تظهر عليه الجدة ، وبعضه مستعار يظهر عليه القدم ،
كأنما تتهياً الدار لاستقبال بعض الزائرين فهى تعد لهم ما يحتاجون
إليه من الغرفات والحجرات ومن الأدوات والأثاث .

والبستاني مسرف في الحركة مندفع في النشاط ، أراه هنا وأراه
هناك وقد استعان باثنين أو ثلاثة من شباب المدينة يعملون معه

فى النقل والتنظف والترتفب . وسكفنة تعمل معهم لا راضفة ولا ساخطة ، لا مبهجة ولا مبهتة ، وإنما هف تذهب وتجف كأنها أداة لا تعرف الرضى ولا السخط ولا تحس الحزن أو الفرح .

وهذه الحركة المتصلة فى بفب المهندس قد أثارت حركة فائرة متقطعة فى بفبنا . فهذا سرفر ىنقل ، وهذه وسائد تعار ، وهذه آففة تجمع ثم تحمل ، وهذه ربة البفب تكلفف راضفة باسمة أن أذهب إلى بفب المهندس فأعفن الخدم على بعض ما فعملون وأن أشرف على التنظم والتنظف والترتفب ، وأن أعنف بأن تهباً الدار لاستقبال الزائرفن تهبئة حسنة لاعفب ففها ولا نقص . ثم هذه ربة البفب تستعد فى بفبها لتهبئة الطعام الذى سىنقل إلى بفب المهندس إذا كان الغد ، ولأعدد الولفة التى ستقام فى دارها إذا كان الفوم الذى فلفه .

وما أكاد أذهب إلى بفب المهندس وأخذ مع الخدم فى العمل والحدفب حتى أعلم — وفبفنى لم أعلم — ، وأفهم — وفبفنى لم أفهم — أن أسرة المهندس مقبلة من القاهرة إذا كان الغد لتقم مع ابنها أفاً أو أسافف ، وأن هذه الزفارة لفسب كغفرها من الزفارات وإنما هف زفارة تتم لأمر فراء ، فسخطب بنت المأمور للمهندس الشاب ، وستشهد المففنة أفراحاً لم تشهدفا منذ عهد بعفد . وسفسمع أهل المففنة من ألوان الغناء ما لم فتعودوا أن فسمفوا

من قبل ، فلن يقرأ عليهم المولد هذا المغنى المشهور الذى يقيم فى
عاصمة الإقليم والذى يتعصب له أهل العاصمة وما حولها من القرى
وما يجاورها من المدن . ولن يقرأ لهم المولد هذا المغنى الآخر الذى
يقيم فى أقصى الإقليم نحو الشمال والذى ينافس صاحبه أشد المنافسة
ويتعصب له نصف الإقليم أو ما يقرب من نصفه . ولن يقرأ لهم
المولد الشيخ المذكور هذا الذى يقيم فى المدينة نفسها ويحبه أهل
الريف ولكن شهرته لا تتجاوز المدينة إلا قليلا . لن يقرأ لهم
المولد واحد من هؤلاء المغنين ، ولكنهم سيسمعون لمغنى يأتى من
القاهرة قد يكون عبد الحى ، وقد يكون الشيخ يوسف ، وقد
يكون غيرها من كبار المغنين ، وستأتى العوالم من القاهرة وستأتى
مغنية مشهورة لتطرب السيدات . وستقام الزينة وتولم الولائم على
أحسن طراز وأجمل شكل ، سيأتى المنظمون لذلك والمشرفون عليه
من القاهرة لا من المدينة ولا من عاصمة الإقليم . وكان الخدم
يفيضون فى ذلك ويجرون فى تفصيله مع هذا الخيال الربيعى الساذج
الذى يحسب أنه يمضى أمامه إلى أبعد أمد على حين لا يزال فى
مكانه لم يتجاوزه أو لم يكد يتجاوزه إلا قليلا .

كانوا يفيضون فى الحديث عن المغنى والمغنية ، وفى الحديث عن
الطهارة الذين سبهيثون الطعام ، وعن الفراشين الذين سينظمون

الولية ويطوفون على الناس بالأطباق والأقداح ، وعن الموسيقى التي ستأتى من القاهرة فتقضى فى المدينة يومين أو أياماً تطرب الناس فى الصباح وتطرب الناس فى المساء ، وعن المدعوين الذين سيشهدون الحفل والذين يدعون إليه من قريب ومن بعيد وفيهم البشاوات والبكاوات وفيهم العلماء من شيوخ الأزهر .

كانوا يفيضون فى هذا كله ويجدون فى الإفاضة لذة يتعجلون بها الحوادث ويستبقون بها إلى ما ينتظرون من فرح وغبطة وابتهاج . وكنت أنا أسمع لأحاديثهم فأفهمها أو لا أفهمها ، وأعى أقلها وأهمل أكثرها ، وأفكر فيما لم يكن بدّ من أن أفكر فيه ، وهو أن هذا المهندس الشاب قد أغوى أختى ثم دفعها إلى الموت ، ثم أخذ يخونها ويتهك ما كان يجب لها عنده من حرمة ، ثم هو الآن ينظم الحياة تنظيمًا ، ويريد أن يأتيها ويقدم عليها ويمضى فيها جهرًا باسم الدين والعرف والقانون .

نعم ، ولن تكون سكينه هذه العاقلة البلاء التي لا أعرفها ولا تعرفنى إلا منذ حين ، لن تكون خليفة هنادى على بيت هذا الفتى وقلبه وجونه وإثمه ولكن التي تخلف هنادى على هذا كله ستكون خديجة . خديجة أحب الناس إلى وآثرهم عندى وأحسنهم

مكأنًا من قلبي . خديجة التي أجد عندها — وعندها وحدها — العزاء
عما لقيت من شر وما احتملت من نكر وما ألمّ بي من مكروه .
خديجة التي أستعين بها على احتمال هذا الخطب الذي أصابني في
أختي وفي أهلي . خديجة هذه هي التي ستراد على أن تأخذ من
قلب المهندس الشاب ، ومن بيته ، ومن حياته كلها ، مكأنًا ما ينبغي
لفتاة أن تأخذه بعد أن سبقت إليه هنادى وأدت ثمنه بذلك
الدم الذكي الذي أريق في ذلك الفضاء العريض !

ولم أكن أسأل نفسي كيف يكون موقع هذا النبأ من نفس
خديجة حين يلقي إليها أتذكره وتضيق به ، أم تحبه وتبتهج له ؟
ولم أكن أسأل نفسي كيف تجد خديجة موقفى منها حين أحاول
أن أصد عنها حبّ هذا الرجل الآثم وأن أردّها عنه ، وأن
أبذل في ذلك من القوة والجهد ومن الحيلة والذكاء ما أملك
ومالا أملك .

لم أكن أسأل نفسي عن شيء من هذا ، ولكنى كنت نائرة
أشدّ الثورة وأعنفها ، مؤمنةً أشدّ الإيمان وأقواه ، بأن هذا الأمر لن
يكون ، مصممةً أشدّ التصميم على ألا يكون مهما تهيأ له الظروف
ومهما تتظاهر عليه القوى .

ثم لم أكن أسأل نفسى عن كل هذه الخواطر التى كانت
تجيش فى صدرى وتبعث فى هذه الثورة وهذا الإيمان وهذا
التصميم ، أكانت خواطر صادقة أم كانت كاذبة ؟ أكنت وفيّة
لأختى بالعهد مشفقةً على حقها أن يضيع ، حريصةً على أن أحفظ
لها بهذا العاشق الخائن رغم أنفه ، مقاومةً فى سبيل ذلك قوة الفطرة
وقوانين الحياة ، أم كنت أتخذ هذه الخواطر حجةً وتعلّةً أخفى بها
على نفسى ما لا أحب أن تظهر عليه ، وأستر بها دون قلبى ما لا أجد
الشجاعة على أن أواجهه به فى صراحة وجلاء ؟

لم أكن أسأل نفسى عن شىء من هذا ، بل لم أكن أسأل
نفسى عن شىء ما ، وإنما كنت أفنى قوتى وجهدى وتفكيرى فى
أن أحول بين خديجة وبين هذا التدبير الذى يدبر وهذا الكيد
الذى يراد . وكثيراً ما كان يخطر لى أنى أحى خديجة من شر
عظيم وأحول بينها وبين خطر منكر ، وأقوم دونها أن يفترسها
السبع أو يغتالها الذئب ، وأضنّ بها على أن تبتذل لهذا المجرم
الآثم الذى لا يعرف حقاً ولا يرعى حرمة ولا يرجو وقاراً نخلق
ولا دين . وكثيراً ما كنت أقدر أن قيامى دون خديجة وحمايتها
من هذا الخطر الذى يوشك أن يلمّ بها فرض يأخذنى به الوفاء لما
بيننا من مودة ، والرعاية لما لها عندى من جميل . وكثيراً ما كان

هذا كله يجتمع ويألف بعضه إلى بعض ويتمثل أمام نفسى مجتمعاً مؤتلفاً قد اتخذ من الوفاء والنصح والإخلاص زينة خلابة ، فإذا هو أُمَامِي امرأة نقية صافية أنظر فيها فتردّ إلى صورة نفس كريمة عظيمة قد ارتفعت عن كل قبيصة ، وأصبحت مثلاً للبطولة والشهامة والتضحية في سبيل الأخت التي اغتالها الخطر ، والصديق التي يوشك الخطر أن يغتالها .

ولو أنى حوّلت وجهى عن هذه المرأة بعض الشيء في ذلك الوقت ، ولو أنى نظرت في نفسى ولم أنظر أمامها ولا من حولها ، ولو أنى تعمقت قلبى وتبينت قرارة ضميرى لرأيت شرّاً ياله من شر ، ولشهدت هولاً ياله من هول ، ولعرفت أنى لم أكن أفى لأختى ولا لصديقى وإنما كنت أؤثر نفسى بما أراه خيراً وشرّاً ، وأوقف هذه النار المضطربة المتأججة على نفسى وأحميها من أن يحترق بها أحد غيرى !

نعم ، ولكنى لم أكن أنظر في نفسى ولا أحاول النظر فيها وإنما كنت مدفوعة إلى إفساد هذا الأمر الذى يدبّر ، ومنع الأسباب أن توصل بين خديجة وبين هذا المهندس الشاب الذى كان لأختى منذ حين والذى يجب أن يكون لى بعد حين ، كأنما ورثته عنها بعد الموت !

والغريب أن هذه الخواطر المضطربة كلها لم تفسد من أمرى شيئاً ، ولم تغير من شكلى ولا من نظام حياتى الذى أُلِّفه أهل الدار قليلا ولا كثيراً . إنما كنت أصبح وأمسى ، وأذهب وأجىء ، وأعمل وأكسل ، وأنشط وأقتر كما رآنى أهل الدار من قبل ، بل خيراً مما تعودوا أن يرونى فى الأيام الأخيرة . فقد ذهب عنى الدهول وفارقنى الوجوم واستقرت عينى وهدأتا واستقامتا . فليستا تضطربان ولا تقدحان الشرر أو ما يشبه الشرر ، ولا تنظران هذه النظرات التى كانت تخيف منى وتثير فى النفوس من حولى شكاً وريباً وإشفاقاً . عدت إلى هدوء غير مألوف ، وانطلق لسانى بالحديث بل تردد الابتسام على شففى ، وأخذ الإشراق يتفرق فى وجهى من حين إلى حين ، حتى لم يشك أحد فى أن هذا الفرح الطارئ قد شفانى مما كنت أجد ورداً إلى ما كان قد فارقنى من اعتدال المزاج .

ثم أصبح وإذا الزائرون قد أقبلوا ، وإذا النشاط المبتسم السعيد يملأ الدارين جميعاً ، وإذا أنا أشارك من حولى فى مظاهر ما يجدون من فرح وبهجة ، وأنفرد وحدى بلوعة لا تنقضى وحزن لا تخمد ناره . يا لقوة النساء ! لقد آمنت منذ ذلك الوقت بأنها لا حد لها .

يا مسكر النساء ! لقد آمنت منذ ذلك الوقت بأنه لا آخر له ولا قرار . يا لقدرة النساء على الكيد وبراعتهم فى التلون ونهوضهن بأثقل الأعباء وثباتهن لأفدح الخطوب !

لقد اكبرت نفسى بل اكبرت المرأة فى نفسى حين رأيتنى اضطرب فى هذا التمثيل وكأنى اضطرب فى الحياة الواقعة لا يأخذنى أحد ولا أخذ نفسى بتصنع أو تكلف أو محاولة ، وإنما أنا أكذب وأنافق وأصطنع الرياء وأخفى ما أخفى وأظهر ما أظهر ، فى سهولة ويسر كما أتففس وكما أفتح عينى وأغضها ، وكما آتى ما تدفعنى الغريزة إلى أن آتى به من الحركات ! ومع ذلك فبعض ما عرض لى من الخطب وبعض ما ألم بى من الهمم كان خليقاً أن يحول بينى وبين الحياة فضلاً عن الحياة الهادئة المطمئنة ، فضلاً عن هذه الحياة المضاعفة التى يملؤها الكذب ويجرى فيها الرياء كما يجرى الماء فى الغصن الرطب .

(١٧)

وانتهى النبأ إلى خديجة كما تنتهى هذه الأنباء إلى الفتيات من بنات الطبقات الوسطى ، ظاهراً خفياً ، وواضحاً غامضاً ، يلقى إليها ويستتر عنها ، تنبأ به وتردّ عنه ، فتبتهج له نفسها وتستحى مع ذلك من أن
(١٠)

تحدث فيه ، ويمتلىء له قلبها غبطة وسروراً ويفرض عليها الأدب مع ذلك أن تتكلف الكتابة والحزن كلما ذكر لها ، وأن تعرض بوجهها إعراضاً كلما هم أحد أن يشير لها إليه من قريب أو من بعيد ، وأن تفر منه فراراً إذا كان الحديث فيه إليها صريحاً جليلاً . على أن صديقي وإن تكلفت من ذلك ما يتكلفه أمثالها مع من كان حولها من أهل الدار فقد آثرتني بما كانت تؤثرني به في كل شيء من هذه الصراحة الساذجة الحلوة ، فلم تحف عليّ ما كان يملأ قلبها من فرح وغبطة وما كان يغشى نفسها من قلق وإشفاق . وما أكثر ما تحدثت إليّ ، وما أكثر ما تحدثت إليها في أمر الخطبة والزواج ، وفيما يحيط بالخطبة والزواج من هذه الأمور التي لا تحصى ولا تستقصى . وما أكثر ما تحدثنا عن خطيبها المهندس وعمّا نعرف وما لا نعرف من صفاته وأخلاقه وأسرته ووثوته . وما أكثر ما أغرقنا في الأمل ومضيئنا مع الخيال ، وما أكثر ما فصلنا الأمور تفصيلاً وأطلنا الوقوف عند الدقائق والصغائر من الأمر فتحديثنا عن الثياب التي ستشتري ، وعن الحلوى وعن الأثاث ، وأقمنا القصور واتقنا إقامتها إتقاناً .

وأنا في هذا كله أجارى صديقي مجاراةً يسيرة لا أتكلف فيها ولا أحاول ، حتى لم تشك لحظة في أنى أشاركها في أمر الخطبة

والزواج كما كنت أشاركها قديماً في أمر اللعب ، وكما كنت أشاركها إلى أمس في الدرس والقراءة والاستظهار . بل نحن نتحدث فيما سيكون غداً أو بعد غد حين يتم هذا الأمر ، وحين تستقر خديجة في دارها وتصبح ربة بيت ، ونتحدث في الدرس الذي لا بدّ من أن نمضى فيه ، وفي القراءة التي لا نستطيع أن ننصرف عنها ؛ ونرتب أمرنا على أنى سأنقل مع خديجة إلى حيث تكون ، وسأشاركها في حياتها مهما تكن الظروف . وما الذي يمنع من ذلك وما دخلت هذه الدار إلا لها ، وما عملت في هذه الدار إلا معها ، وما استطاعت في يوم من الأيام أن تقبل شركة أو ترضى من أهلها أن يكلفوني بما لا يتصل بها من الأمر ؟ كنت لها طفلة ، وكنت لها فتاة ، ويجب أن أكون لها حين تصبح زوجاً وربة بيت .

نعم ما أكثر ما تحدثنا في هذا كله وأنفقنا فيه الساعات أثناء النهار حين كان من حولنا يضطربون فيما يضطرب فيه أهل الدار حين تهيأ لإقامة الأفراح ، وأنفقنا فيه الساعات أثناء الليل حين كان كل شيء من حولنا يسكن هذا السكون العميق الذي تمتاز به ليالى الريف . ولكن نفسى في هذه الساعات كلها لم تكن هادئة

ولا مطمئنة وإنما كانت ثائرة جامحة ، وكنت كثيراً ما أ كفّ عن الحديث لأفكر في هذا الشخص الغريب الذى يحتوى نفسين متناقضتين أشدّ التناقض : نفساً تبتهج وأخرى تبتئس ، نفساً تعد وأخرى توعده ، نفساً تمضى فى الحديث بما يسر ويضر وأخرى تمضى فى تدبير ما يحزن ويسوء .

وتنقضى الأيام الأولى ، ويكون اللقاء ويكون التزاور ، ويكون الامتحان لخديجة بالنظر والحديث ، ويدنو كل شىء من غايته ، ويستحيل الجو إلى الوضوح والجلاء ، ويتنفس أهل الدارين فى جو كله سرور وغبطة وأمل ورجاء فى غد .

ويدنو أهل الدارين من هذا اليوم الذى تتكشف الأمور فيه عن نفسها وتصبح الخطبة فيه أمراً واقعاً يعرفه كل الناس ، وأنا مؤثرة للصمت آخذة فيما يأخذ فيه أهل الدارين من ألوان النشاط . ولكنى أجدنى فى ساعة من ساعات النهار وقد أذنت الشمس أن تنحدر إلى مغربها ، وانتشر فى الجو هذا الحزن الضئيل اليسير الذى ينتشر فيه مع الأصيل فيهدىء من نشاط النفوس ، ويخفف من وجيب القلوب ، ويلقى على الآمال المشرقة بعض الشحوب ، ويجرى فى الأصوات الفرحة نغمة لا تخلو من كآبة .

أجدنى فى ساعة من هذه الساعات مقبلةً على ربة البيت حتى إذا بلغت غرفتها دخلت لا أستاذن ، ثم أغلقت الباب من دونى لا أستاذن ، ثم وقفت واجمةً بين يدى سيدتى لا أقول شيئاً ، وإنما تنحدر الدموع غزيرةً على خدى ، وسيدتى تنظر إلىّ فى غير إنكار وفى غير لوم كأنها قد فهمت عنى ما أردت أن أقول وكأنها قد استجابت لدعائى فهى ترفق بى وتؤكد لى أنى لن أفارق خديجة ولن يحول بينى وبينها حائل ، وأنى سأنتقل معها حين تنتقل ، وسأسافر معها حين تسافر ، وسأقيم معها حين تقيم ، وأنى أحسن حظاً منها هى ، فهى مضطرة إلى أن تفارق ابنتها أما أنا فلن أفارق سيدتى وصديق . . .

وأنا أسمع هذا الحديث وأفهمه ولكنه لا يبلغ منى ولا يؤثر فى نفسى ، فما لهذا الحديث أقبلت ، وما حاجتى إلى أن أسمع من ربة البيت وقد سمعته ألف مرة ومرة من خديجة ، ومتى استطاعت ربة البيت أن تفرق بينى وبين ابنتها فى جد أو لعب ؟ كلا ، لم أقبل لأسمع هذا الحديث ، بل لم أقبل لأسمع شيئاً ، وإنما أقبلت لأقول شيئاً ، وقد قلته فى صوت هادىء تبّله هذه الدموع المنحدرة المنهمرة . وكنت أقدر أنه سيقع من هذه المرأة موقع الصاعقة وأنى

قد دخلت هذه الغرفة فى هدوء ولن أخرج منها إلا فى عنف واضطراب ، ولكن قد أتممت ما أردت أن أقول وانتظرت ثم نظرت فلم أسمع شيئاً ولم أر على هذه المرأة اضطراباً ولا دهشاً ولا شيئاً يشبه الاضطراب والدهش ، ثم هممت أن أنصرف خجلاً مستخذية ولكن وقفتنى بالإشارة وتركتنى لحظة لا تقول لى شيئاً ولا تلقى إلىّ لحظاً ، ثم قالت فى صوت عادى متزن : وهل أنبات خديجة من هذا بشيء ؟ .

قلت وقد أغرقت فى البكاء : كلا ياسيدتى وما ينبغى لنفس خديجة الطاهرة البريئة أن يلقى فيها حديث هذا الإثم ، ولولا أنى أوتر خديجة وأوتر الأسرة كلها لما أنباتك بشيء ، ولما أفضيت إليك بسر هذه الأسرة البائسة التى تعيش فى بؤسها المظلم فى أقصى الريف .

قالت وقد نهضت إلىّ مثاقلة : لا بأس عليك فلن يذاع سر أسرتك . ثم ضمتنى إليها وقبلتنى وهى تقول : لقد أنقذت ابنتى من شر عظيم .

(١٨)

قلت : نعم يا سيدتى ، قد أنقذت خديجة من شر عظيم ولكنك
 ترين معى ألاّ مقام لى فى هذه الدار منذ الآن ، فكل شىء
 يأمرنى بالتحول عنها . قالت وقد أحسست فى صوتها أنها مشغولة
 البال منصرفه النفس عما يمكن أن أبسط لها من حديث : وما ذاك ؟
 قلت مقتصده متعجلة ، مضمرة أنى إنما أتحدث لأعذر عما سأتى من
 الأمر : لم أعود يا سيدتى أن أخفى على خديجة شيئاً أو أكتُم من
 دونها سرّاً ، وما ينبغى بل ما أستطيع أن أبقى معها مستاثرةً بعلم
 ما أعلم طاويةً عنها مسعاى عندك ، وستعلم خديجة من غير شك أن
 هذا الأمر الذى بدى فيه قد أهمل وعدل عنه ، وسيكون له فى
 نفسها أثر حاد ما أشك فى ذلك ، ولست آمن نفسى حين
 أحاول ما يجب علىّ من تسليتها وتعزيتها أن أبوح لها ببعض
 الحديث ؛ وانخير كل انخير فى أن أتعجل الرحيل ، وما دام الله
 قد قضى علىّ الشقاء فلا بدّ من الإذعان لما قضى الله . قالت : وأين
 تريد أن تذهبى ؟ قلت : لا أدرى ، وإنما يجب أن أذهب أولاً ،
 فأما إلى أين فشىء سأستبينه بعد ذلك . . !

ولم يرتفع ضحى الغد حتى كنت بعيدة عن دار المأمور قريبة منها مع ذلك ، ألاحظ من كذب ما يكون بين هاتين الأسرتين اللتين لم تتصل بينهما الأسباب إلا لتقطع ، ولم تنشأ بينهما المودة إلا لتستحيل إلى عداوة أو شيء يشبه العداوة . ولم أجد في ذلك مشقة ولم أتكلف فيه عناء . وإنما تحولت من دار إلى دار ، وقضيت يوماً أو بعض يوم عند هذه المرأة التي تحدثت عنها في أول هذه القصة ، عند زنوبة تلك التي عرفتها في بيت العمدة وقصصت من حديثها ما قصصت .

أقبلت عليها نحو الظهر فألفيتها قائمة تكييل بعض ما تكييل من الحب ، وأمامها نسوة يشترين منها ، هذه تشتري القمح ، وهذه تشتري الذرة ، وهذه تشتري الفول . هذه تشتري نقداً ، وهذه تشتري نسيئة ، وزنوبة تحتكم في هذه وتلك صائحة مسرفة في الحركة ، لا يستقر لسانها في فمها ، ولا يستقر وجهها أو لا يستقر ما يختلف عليه من الصور والأشكال ، فهي عابسة حيناً ، وباسمة حيناً ، وهي تفعل بعينيها وشفتيها وحاجبيها الأفاعيل وتدل بها على ما قد يعجز الكلام عن أن يدل عليه . وهي تسب هذه جادة وتسب هذه مازحة ، وهي تلمح حيناً وتصرح حيناً آخر ، وهي تمضي في ذلك والنسوة يسمعن لها ، راضياتٍ عنها معجباتٍ بها ،

مشاركاتٍ لها في بعض ما تقول وفي بعض ما تأتي من الحركات ،
وأفراد من شباب المدينة قد اجتمعوا غير بعيد ينظرون ويسمعون ،
ويستمعون ، ثم يتبادلون فيما بينهم أحاديث فيها الدعابة والرضى
وفيها اللذة والإعجاب .

فلما رأتني زنوبة لم تنكرني ولكنها لم تغل في الترحيب بي ،
وإنما نظرت إليّ من الرأس إلى القدم ، ثم قالت في صوتها
النحيف : ها أنت هذه تقبلين ! لقد بعد العهد بك منذ التقينا في
بيت العمدة ، ولكني كنت أنتظرك وما شككت في أنك ستأتين
إلى هذا البيت وستقومين مني هذا المقام . قلت : فهل أنبأك الودع
بهذا ؟ قالت : وما يدريك لعل الودع قد أنبأني من أمرك بما تعلمين
وبما لا تعلمين . إصعدي إلى هذه الغرفة من فوقنا فتخففي من
حقيبتك وأستريحى فسأفرغ لك بعد حين ، ولا تتعجلي الطعام إن
كنت جائعة فإن وقت الغذاء لم يحن بعد ، وإن كنت أقدر من
أمرك أنك لا تحفلين بالوقت فيما يتصل بالطعام ، فما أرى إلا أنك
تأكلين في كل وقت . هذا شأنكن أيتها الفتيات تشغلن ببطونكن
أكثر مما تشغلن بأى شيء آخر . ومن يدرى لعلكن تشغلن ...
فقطعت عليها حديثها بالانصراف عنها والتصعيد في السلم إلى الغرفة

التي دلتني عليها ، ولكنها ، تبعتني مع ذلك بالسخرية والدعابة
وأخذت تقول : اهربي ، اهربي ، وجدّي في الهرب . إن أذنك
التيتمتين البريئتين لا تستطيعان أن تسمعما لما ألقى من حديث !
إنك تخافين من احمرار الوجه واضطرابه ! ؟ لن تخدعيني وإن استطعت
أن تخدعي غيري فإنك لتحبين هذا الحديث وتخوضين فيه وفي
شر منه مع أترابك من الفتيات ، ولكنكن تتصنعن الحشمة وتكلفن
الحياء ! على أنها لم تمض في هذا اللغو إذ لم تأنس استماعي لها وانصرافي
إليها فمضت فيما كانت فيه من بيع وكيل ومن دعابة بالوجه واللسان .
وفرغت لي بعد ساعة فأقبلت عليّ هادئة باسمه تسألني عن أمي
وأختي وأجيبها على أسئلتها بما أريد ، فتصدّق ما تصدق وتكذب
ما تكذب ، ثم قالت : وأنت الآن تريدين العمل ، فأين تحبين أن
تعملي ؟ وكيف تريدين أن تعيشي ؟ إن لك من جسمك هذا
الجميل ، ووجهك هذا الوضيء ، ومنظرِكَ هذا الذي يسحر الشبان
ويحلب عقول الرجال ، ما يكفل لك حياة فيها ثروة وغنى ، وفيها
نعيم وترف ، وفيها لذة ومتاع ، وفيها تسلّط وسيطرة واستخفاف
وعبث بعقول الشباب والشيب . قلت مغضبة : دعيني من هذا
الحديث ، ولست أريد منك شيئاً ، وما أقبلت أستعينك على شيء ،
وإنما أملت بك محبةً لك قبل أن أترك هذه المدينة فإني

عنها مرتحلة ، قالت وقد أدارت عينيها وأسبغت على وجهها شكلاً مضحكاً تملؤه السخرية ويشيع فيه التكذيب والاستهزاء ، وأرسلت من فيها شهيقاً منكراً أتبعته بشخير منكراً ما أشك في أن الشباب المجتمعين غير بعيد قد سمعوه فتضاحكوا له ، وانتهى إلينا ضحكهم حيث كنا فزادها مرحاً ونشاطاً ، وملأني خزيًا واستحياء ، قالت : لا تراعى ، لا تراعى ، فلن أعرضك للبيع كما كنت أعرض هذه الحبوب آنفاً ، ولن أكرهك على ما لا تحبين ، ولكني أعرض عليك ما عندي . فأنت تكرهين هذه البضاعة أو تظهرين كرهها الآن ! فعندي غير هذه البضاعة ، ولكن ثقي يا ابنتي أنك راجعة إلى فطالبة منى ما ترفضين الآن . لست الأولى ولن تكوني الأخيرة . . . تريدن عملاً كله جد كهذا الذى كنت فيه عند الأمور ، فلم تركت بيت الأمور ؟ ولكن هذا من أسرارك ، وإن لم يكن للفتيات أمثالك على أمهاتهن من أمثالى سر ، فقد أحب أن أعلم من أمرك جليّه وخفيّه لأوصى بك عن علم . أخرجت سارقة ؟ أم خرجت لسوء العشرة ؟ أم خرجت للكذب ؟ أم خرجت لكثرة الصياح ؟ أغضبت سيدك ؟ أم أغضبت سيدتك ؟ أم أغضبت بنت الأمور ؟ أم أغضبتهن جميعاً ؟ وكيف خرجت من هذا البيت في هذا الوقت ؟ وهل تعلمين أن في المدينة مأمورين

أو بيتين كبيت المأمور ؟ وانت تخرجين في الوقت الذي يستعد فيه البيت للافراح والليالي الملاح ، وتنزلين عما كان يحق لك ان تطمعي فيه من العطايا والهبات . فليس من شك في أنهم كانوا سيمنحونك كسوة فاخرة ، وليس من شك في إن كثيراً من النقد كان سيقع إليك من هذا ومن ذاك ومن هذه ومن تلك ، فكيف تركت هذا كله ؟ أتركته راضيةً ولماذا ؟ أم أكرهت على تركه ولماذا ؟ تكلمى ! إني لا أحب الغموض ، ولا اطمئن إلى الأسرار ، ولا خير في التمتع والإبقاء والسكتمان ، فما تخفيه اليوم سأظهر عليه غداً وسأظهر عليه قبل أن تغيب الشمس ، ولست بزوجة إن خفيت على أسرار فتاة مثلك لم تبلغ العشرين ، وأنا أعلم من أمر هذه المدينة وأسرار أهلها وأخبار الأسر التي تقيم فيها أو تفد عليها أو ترحل عنها ما أعلم ! تحدثي ، كيف خرجت من بيت المأمور أو كيف أخرجت منه ؟

وأمام هذا السيل المنهر من الحديث ، وأمام هذه الأسئلة الملحة وهذا الحرص الشنيع على الاستطلاع واستكشاف الأسرار ، لم يسعني إلا أن أنهض وأعمد إلى حقيقتي فأحملها وأمضى نحو السلم ، ولكني لم أكد أبلغه حتى رددت عنه رداً ، وحتى كانت حقيقتي قد خطفت مني خطفاً ، وحتى كانت زوجة قد أحاطتني

بذراعيها المنكرتين ، وأخذت تلحّ علىّ بالضم والتقبيل تهدئني وتترضاني ، وأنا لذلك كارهة أشدّ الكره ، وعلى ذلك ساخطة أشدّ السخط ، ولو استجبت لنفسى لصحت مستنجدة طالبة الغوث ، فقد أخذت أمقت نفسي وألومها وألعن هذه اللحظة التي خطر لى فيها أن آوى إلى دار هذه المرأة ريثما أهتّى أمرى بعض الشيء وأدبر لى عملاً أمضى فيه .

ولكن زنوبة ملحّة علىّ بالرفق والملاطفة ، وقد خفت صوتها وعذب حديثها ، وأخذت تتحدث إلى بأمور ليس بينها وبين ما كنا فيه صلة ، كأنها أعرضت عن كل ما من شأنه أن يسوءنى أو يروعنى أو يقلقنى عن هذه الدار التي أقتنعت زنوبة بأن لا بد من أن يطول فيها مقامى أياماً أو أسابيع .

ثم أنظر فإذا نحن قطعنا وقتاً غير قليل فى حديث هادى فيه الجد وفيه الهزل ، وإذا أنا آنس إلى هذه المرأة وأطمئن إلى ما أحسن من عطفها ، وأنظر فإن حياتنا قد مضت فى هذه الساعات يسيرة قد زال منها التكلف ، وإذا نحن قد تغدينا معاً ، وإذا كل واحدة منا قد أخذت تتحدث إلى صاحبيتها فى شيء من السذاجة والثقة غريب ، وإذا نحن نستحضر آلامنا وأحزاننا ، وإذا كل واحدة تستكشف فى صاحبيتها من وراء هذه الصورة الظاهرة التي يعرفها

الناس صورة أخرى خفية من صور البؤس وتمثالاً مستتراً من تماثيل الشقاء ، وإذا كل واحدة منا ترقى لصاحبها أو تتخذ الرثاء مظهرًا من مظاهر الرثاء لنفسها ، وإذا نحن نشترك في البكاء وتعاون عليه كما كنا نشترك منذ حين في الضحك ونستبق إليه . ولم يكد ينصرم النهار ويقبل الليل حتى كانت الألفة بيننا قد انتهت بنا إلى هذا الطور الذي يطمئن فيه الإنسان إلى الإنسان وإن احتفظ بشيء من الاحتياط . . .

فلم أظهر زنوبة على سري ولكن أنبأتها بأن أختي قد قضت في الغرب ، وزعمت لها أنني إنما خرجت من بيت للأمور في إثر مغاضبة كانت بيني وبين الخدم ثم لم أظفر بما كنت أراني أهلاً له من الإنصاف . وقد سمعت مني ما أقول وهي إلى التكذيب أقرب منها إلى التصديق ، ولكنها تجنببت الجدال والإلحاح فيه ، وأظهرت الرثاء لي والعطف عليّ ، ووعدتني بأنها ستجد لي عملاً شريفاً مريحاً إذا كان الغد ، وألحّت عليّ في أن أقضي الليل معها وقد فعلت ، وقد أنفقنا جزءاً غير قليل من الليل في مثل ما أنفقنا فيه النهار . فلما أصبحنا غابت عني ساعة أو نحو ساعة ثم عادت إلى متلهة مشرقة الوجه وهي تقول : لقد وجدت عملاً ما أشك في

أنه سيرضيك . ستعملين حيث كانت تعمل أمك قبل أن ترحلن
عن المدينة في بيت فلان ، أتذكرين اسمه ؟ أتعرفينه ؟ إنه رجل
من أصحاب الثراء واليسر ، وقد لا تجدين في داره مثل ما كنت
تجدين في دار المأمور من الترف ، ولكنك ستجدين عنده سعة
ويسراً ، ودماًثة في الخلق وتبسطاً في المعاملة . فزوجه كريمة
النفس ، وبناته صالحات لم يفسدهن الذهاب إلى المدارس ولا استقبال
المعلمين . فهذا الرجل أمير يرض بيناته على هذا الفساد ، ويرسل
أبناءه كلهم إلى القاهرة ليتعلموا فيها وليصيروا فيما بعد موظفين
كباراً كالمأمور والقاضى والمهندس .

وإذا أقبل الصيف وعاد هؤلاء الشبان من القاهرة امتلأ البيت
فرحاً ومرحاً وأصبحت أيام الأسرة كلها أعياداً ، وازداد حظ الخدم
من الرغد والسعة ولين العيش . وأنا كثيرة الاختلاف إلى هذا
البيت منذ استقرت هذه الأسرة فيه منذ أعوام وأعوام ، وقد
رييت أبناءها وبناتها ، وقد تبنت منهم واحداً بعينه هو الآن
شاب نجيب سيكون بعد قليل موظفاً كبيراً ، وهو يعرف لى هذا
الحق ويحبني ويكرمني ويؤثرني بالخير والمعروف . قلت : وكيف
تبنته ؟

قالت وهى تضحك : أتجهلين هذه العادة ؟ لقد أخذته حين كان وليداً فأدخلته بين ثوبى وبنى . أدخلته من جيبى وأخرجته من تحت ذيلى ، فأصبحت كأنى والدته وأصبح لى عليه حق الأمهات وله على حق الأبناء . ستعملين فى هذا البيت وسترضين ، وسأراك كل يوم إذا أصبحت وسأراك إذا أمسيت ، فليس بين هذا البيت وبيننا إلا خطوات ، وأنا أعمل فيه ساعات من نهار . وقد تحدثت عنك إلى ربة البيت فعرفتك وعرفت أمك وأختك وقبلتك راضية مسرورة ، فهلم بنا فقد تركتها على أن أعود بك إليها بعد لحظات . ولست أخفى عليك أنها كرهت بعض الشئ استخدامك بعد أن خرجت من بيت المأمور لما بين الأسرتين من مودة ، ولكنها لم تطب نفسها عن تركك عرضة لما يتعرض له الفتيات من الشر بعد أن عرفت أمك وحدثت عشرتها . فهلم بنا فقد تتاح لنا أوقات طوال يكثر فيها بيننا الحديث .

ونَهَضت معها وليس فى نفسى ريب فى أنها قد نصحت لى وأخلصت فى النصيح والود ، وفى نفسى بعض الأمل فى أنها ستعيننى يوماً ما على تحقيق ما أريد .

(١٩)

وأقبلت معها على بيت من بيوت الريف هذه التي يظهر فيها
الثراء ويحسُّ أهلها سعة العيش ، ولكنهم على ذلك لا يأخذون
من ترف الحضارة إلا بأيسره وأهونه ، محتفظين بما ألفوا من هذه
الحياة الريفية التي لا دقة فيها ولا رقة ولا افتنان في إرضاء الذوق ،
والتي تكره النظام وتنفر منه ، وترى في الترتيب والتنسيق تكلفاً
وجهداً لا خير فيهما ولا حاجة إليهما . بيت من هذه البيوت التي
لا يكاد يدخلها الداخل حتى يحسُّ أن أهلها ميسورون ولكنهم
فلاحون كما يقال ، فالتناع كثير ولكنه مهمل ، مضطرب لم ينظم
ولم ينسق ولم يهيئاً ، وإنما حمل إلى الدار ثم استقر فيها كما
استطاع أن يستقر .

والفرق فيها ملغى أو كالملقى بين حجرات الاستقبال للسيدات
وحجرات الاستقبال للسادة ، بل بين حجرات الاستقبال وحجرات
الطعام ، إنما يستقبل أهل الدار حيث توجد المقاعد والكراسى ،
ويأكل أهل الدار حيث يتفق لهم أن يأكلوا إلا أن يطرقهم
طارق ، أو يلزمهم ضيف فيكون الطعام حيث يكون الاستقبال ،

ثم يكون نوم الطارق أو الضيف حيث يكون الطعام والاستقبال أيضاً .

في البيت مقاعد وكراسى ولكن أهل الدار يؤثرون الجلوس على هذه الحصر ، والأبسطة قد أقيت على الأرض إلقاء . فإذا طرق الطارق أو أقبل الضيف عرفت الكراسى والمقاعد أن لها في البيت منفعةً وعملاً .

والفرق ملغى أو كالمغى بين من في الدار من الناس وما في الدار من الحيوان على اختلافه ، فالدجاج مطلق يمضى حيث يشاء ويستقر هنا ثم يستقر هناك حاملاً معه أقذاره وآثاره لا يحصى منه إلا حجرة أو حجرتان ، ولا تحميان إلا في مشقة وتكلف للجهد ، وقد لا يكره أهل الدار إذ اشتد القيظ أن ينفقوا مساءهم تحت السماء قريباً من البقرة أو الجاموسة أو ما إليهما يطلبون النسيم حيث يجدونه ، لا يتكلفون في ذلك ولا يتصنعون ولا يجدون في مخالطة الحيوان حرجاً ولا أذى . هي الحياة السهلة اليسيرة الغنية همّت أن تتحضر وأن تترف فأخذت من الحضارة والترف بحظ ثم لم تستطع أن تتقدم فاكثفت بما أخذت ، ووقفت عند حد من الحدود لا تعدوه .

ولم أكد ألقى ربة البيت ومن حولها بناتها وخادماها يعملن وتعمل معهن ، يتحدثن وتشاركهن في الحديث ، حتى أحسست أنى سأجد فى هذه الدار راحةً وتعباً ، وسألقى فيها نعيماً وبؤساً . وقد صدق حسى فنعمت فى هذه الدار وشقيت . نعمت بهذه السذاجة التى ردتنى إلى شىء يشبه حياتى فى أقصى الريف ، وخلطتى بأهل الدار كأنى واحدة منهم ، وألغت ما بين السادة والخدم من الفروق أو كادت تلغيه . ولكن أى حياة يموت فيها العقل أو يأخذ شىء كالموت ! لم آسف على ما فقدت من الترف ، ولعلى لم آسف على ما فقدت من صحبة خديجة . فقد استيئست من صحبتها واتخذتها — سواء أردت أو لم أرد — لنفسى خصماً حاربتها وإن زعمت أنى كنت أَدافع عنها ، وظلمتها وإن زعمت أنى أنقذتها ، وانتصرت عليها وإن زعمت أنى أنصفتها . لم آسف لما فاتنى من صحبتها فلم يكن من ذلك بدّ . ولكن أى أسف وأى حزن وأى لوعة وحسرة ، وأى ندم يذيب القلب ويملأ النفس كآبةً ويأساً هذا الذى كنت أجده إذا أصبحت وأمسيّت وقضيت الليل والنهار بين عمل باليد أو حديث مع أهل الدار لا متاع فيه للعقل ولا لذة فيه للقلب ! ؟ .

أين القراءة مع خديجة ، وأين القراءة منفردة ؟ أين هذه الكتب العربية وهذه الكتب الفرنسية التى كنت أنفق معها أكثر النهار

وشطراً من الليل قارئاً أو متحدثاً عما قرأت أو متمنيةً لاستئناف القراءة ؟ لقد تركت هذا كله فى بيت المأمور وأقبلت إلى بيت لا يقرأ من أهله أحد ، إلا رب البيت فإنه يقرأ إذا أصبح ، ويقرأ إذا أمسى ، وأنا أسمع فى الصباح والمساء ، وأكاد أحفظ عنه ما يقرأ ، وما يعينى مما يقرأ إنما هى أوراده وأدعيته ، ودلائل الخيرات ، وأين أنا من هذا ، وأين هذا منى . . ! ؟

ولقد خرجت من بيت المأمور لم أصطحب كتاباً وما كان لى أن أصطحب كتاباً ، وإنما دانت كلها كتب لخديجة . ولقد سألت تقسى ألف مرة ومرة أين يمكن أن أظفر بهذا الكتاب ! فليس فى هذه المدينة من مدن الريف كتب تباع إلا هذه التى يعرضها الطوافون فى أيام السوق أو فى يوم الخميس من كل أسبوع ، يعرضونها فى السوق ويمرون بها على الدور وليس لى فيها أرب ولا منفعة ، إنما هى قصص لا تعجبنى ولا تروقنى ، وسحر لا أحسنه ، وصلوات وأغانى دينية لا أعرف منها قليلاً ولا كثيراً .

أين هذه الكتب المترفة ذات الطبع الجميل والجلد الأنيق ، هذه التى تأتى من القاهرة والتى كنت أجد اللذة والمتاع حين آخذها فى يدى أو حين أنظر إليها ؟ أحيل بينى وبينها آخر الدهر ؟ أقضى

على أن أردّ كما كنت فلاحاً من بنات الريف تنفق نهارها
في هذا العمل الآلى الذى لا يكاد يفرق بينها وبين ما يحيط بها
من النبات والحيوان ؟ كلا . . . !

هؤلاء فتیان الأسرة قد أقبلوا من القاهرة وقد رأيتهم يفرغون
حقائبهم فما أكثر ما رأيتهم يستخرجون منها من الكتب ذات
الأحجام المختلفة والأشكال المتباينة . منها الضخم ومنها النحيف ،
منها متقن الطبع ومنها ما أهمل طبعه إهمالاً ، منها ما جلد في
عناية وما ترك على حاله التى خرج بها من المطبعة . ولكن أين
منى هذه الكتب وكيف السبيل إلى النظر فيها ، بل كيف السبيل
إلى الوصول إليها ؟ هنا حدثتني نفسى بما لم تحدثني به قط ،
فأنكرت حديثها بعض الشيء ، ولكنى لم ألبث أن عرفتته وقبلته
واطمانت إليه ثم صممت عليه تصميماً . وأىّ بأس في أن أختلس
الكتاب اختلاساً فأنظر فيه وقتاً طويلاً أو قصيراً ، ثم أردّه إلى
مكانه لم يمسه بأس ولم يصبه مكروه ، أسرقة هذه ؟ أإثم هذا
الذى أنا مقدمة عليه إن وجدت إلى الإقدام عليه سبيلاً ؟ والله
يشهد ما سرقت ولا فكرت في السرقة ، وما اختلست ولا فكرت
في الاختلاس إلا هذه المرة . والله يشهد ما لمت نفسى على ذلك

ولا أسفقت عليها من تورط في الإثم أو تعرض للعقاب ؛ وإنما قضيت أسابيع غريبة فيها مهارة لم أكن أعرف لنفسى منها حظاً ، وفيها خوف وإشفاق ، وفيها بين ذلك لذات لن أنساها . فكم خدعت أهل الدار ، وكم تغفلتهم ، وكم اختلست الكتاب من هذه الكتب فأخفيته بيني وبين ثوبى ، ثم انحزت به إلى حيث اتخذت لنفسى مأمناً لا أخشى أن يعثر علىّ فيه ، ثم أخذت أقلب صفحاته وألقى عليه نظراتٍ طويلاً أو قصاراً تغرينى به أو تصرفنى عنه ، وأنا أجد لهذه الخادعة ولهذا الخوف ول هذه القراءة لذة غيرت حياتى تغيراً وكادت تصرفنى عن هذه الخواطر التى كانت تصاحب نفسى ، وتملأ قلبى وترسم أمام عيني بيت المأمور وبيت المهندس وصورة خديجة وصورة هذا الشاب .

نعم ، كادت هذه الحياة الجديدة تصرفنى عن هذا كله لولا حديث سمعته وأنا أطوف بألوان الطعام وأقداح الماء على سادتى فى ليلة من هذه الليالى . سمعت حديثاً عن المأمور اضطربت له نفسى اضطراباً ، ولولا أنى أنفقت جهداً عنيفاً لظهر هذا الاضطراب ولسقط من يدى ما كنت أحمله من آنية . فقد نقل المأمور من المدينة إلى مدينة أخرى فى أقصى الأرض مما يلى البحر وكان هو

الذى طلب هذا النقل وسعى فيه وتوسل إليه بفلان وفلان .
والناس يهمسون بأنه إنما فعل ذلك ليفرّ بابنته من جوار المهندس
الذى كان قد خطبها ثم قطعت الخطبة ، والناس يختلفون فمنهم
من يرى أن المهندس هو الذى قطع الخطبة لأشياء بدت له ، ومنهم
من يزعم أن المأمور هو الذى رفض الخطبة لما تبين من سوء
سيرة هذا الشاب .

سمعت هذا واضطربت له وأكظمت عواطفى وأكرهت نفسى
على التزام الأمن والهدوء ما اضطرت إلى الخدمة ، فلما أتيتحت لى
العزلة أرسلت نفسى على سجيتها فقضيت ليلة ساهرة حائرة مفكرة
محزونة . ولكن الصبح لم يسفر حتى أسفر معه للنفس أمل لا
يخلو من حزن ولكنه أمل على كل حال ، من أجله أفسدت الأمر
على خديجة ، ومن أجله خرجت من بيت المأمور ، ومن أجله نفيت
نفسى فى هذه الدار . فقد خلا الجو لى فى المدينة وأصبح من
الممكن أن تتصل الأسباب بينى وبين هذا المهندس الشاب ، وأصبح
من الممكن بل أصبح مما لا بدّ منه أن يكون الصراع بينه وبينى ،
فيعلمن بعد وقت قصير أو طويل أذهب دم هنادى هدرأ أم
لا يزال على هذه الأرض من هو قادر على أن يظفر له بالتأثر ويشفى
نفسه بالانتقام . . ؟

(٢٠)

وقضيت بعد ذلك أسابيع حائرةً أشدَّ الحيرة ، مرتبكةً أعظم
الارتباك ، تضطرب الخواطر في نفسى وتختلف وتزدحم دون أن
أقدر على تنظيمها أو أجدر لى منفذاً منها إلى هذا الخاطر الذى
كنت أطلبه وألحّ في طلبه وأريد أن أطمئن إليه . فلم يكن لى
بدّ من أن أتصل بخدمة هذا المهندس الشاب ، ولم تكن السبيل
إلى ذلك ميسرة ، فأنا عاملة في هذه الدار لا أجدر من أهلها ما
يزعجنى عنها أو ما يضطرنى إلى فراقها ، وسكينة عاملة عند
المهندس ، لا تجد منه ما يؤذيها ، ولا يجد منها ما يصرفه عنها
أو يزهد فيه .

وكنت أجهد نفسى أثناء هذه الأسابيع إجهاداً شديداً متصلاً
ألمس مخرجاً لى من هذه الدار ومخرجاً لسكينة من تلك ، وأريد
مع ذلك أن أجنب الشر والإساءة ما وجدت إلى اجتنابهما سبيلاً .
وكثيراً ما سمعت سادقنى يتحدثون أثناء الغداء أو أثناء العشاء عن
مبادلة يسعى فيها أكبر أبناء الدار وكان موظفاً في إقليم بعيد ،
وكان يريد ويريد أهله أن ينتقل إلى المدينة التى نحن فيها ليعيش
بين أهله سعيداً موفوراً ، فكان يسعى فى أن يبادل موظفاً في المدينة

ليأخذ كل منهما مكان صاحبه . وكان التراضى قد تمّ بينهما بعد أخذ ورد وبعد سعى وإلحاح ، وكان السعى متصلاً في أن ترضى الحكومة عن هذه المبادلة . وكان الأمل يدنو حيناً من هذه الأسرة ويبعد حيناً آخر ، وكان ربّ البيت وربّته يحرصان على تحقيق هذا الأمل أشدّ الحرص ويكثران الحديث فيه ، وكانا يتصوران ابنهما وقد عاد إليهما بعد طول الغربة في أقصى الصعيد ، وكانا يهيئان له في أحاديثهما غرفته وينظنان فيها الأثاث ويذكّران ما يجب أن يشتري من المتاع ، ويتحدثان بما سيتغير من نظام الدار إذا أقبل هذا الشاب الذى تعلم فى المدارس وتعود حياة الترف والنعيم ، والذى يتكلم الفرنسية ويتأنق فى اللباس ، ولا يأكل كل كما يأكل أهل الدار جالساً على الأرض إلى هذه المائدة المنخفضة ، عليها هذه الصينية النحاسية البيضاء فى الأيام العادية وعليها تلك الصينية النحاسية الصفراء التى لم تكن توضع حتى يسرع إليها الصبيان والشبان يتكلمون قراءة ما كان عليها من بعض النقوش قبل أن يرصّ الخبز عليها رصّاً فيخفى هذه النقوش إخفاء .

نعم ، ولم يكن يأكل بيديه كما يأكل أهل الدار ، وإنما كان يصطنع هذه الأدوات التى يصطنعها المترفون ، وكان سيّد البيت

وسيدته يتحدثان بذلك منكرين له بأطراف ألسنتهما ، معجبين به أشد الإعجاب في قلوبهما . وكان الشبان من أبنائهما يسمعون أحاديثهما هذه ويعرفون سخطهما الظاهر وإعجابهما الخفي ، فيبسمون صامتين ما أقام أبوهن ، فإذا انصرف لشأنه امتلأت أفواههم بالضحك وانطلقت ألسنتهم بالدعابة ، وأمه تسمع لهم وتنظر إليهم ، منكراً عليهم بطرف اللسان معجبة بهم في أعماق القلب . وكنت أنا أسمع الأحاديث كلها فألهو بها وأطيل التفكير فيها . فهل من سبيل إلى أن تتم بين سكيينة وبينى مبادلة كهذه التي يراد أن تتم بين ابن هذه الدار المنفى في أقصى الصعيد وهذا الموظف القبطى المنفى في أدنى الأرض ؟ !

ولكن كيف السبيل إلى تحقيق هذه المبادلة ، بل كيف السبيل إلى عرضها على سكيينة أو التحدث إليها فيها ؟ بل كيف السبيل إلى تعليل هذه المبادلة لسكيينة ، وما الذى يزعمها عن منزلها هذا الذى تطمئن اليه وتسود فيه لا تكاد تدعن لأحد ولا تكاد تلقى من أحد ما يلقاه الخدم من السادة ؟ ما الذى يزعمها عن هذا المنزل ويحملها على أن تنتقل منه إلى هذه الدار التي لا حظ لها من ترف والتي ليس فيها هذا المهندس الشاب ؟ وهب سكيينة حنت

وأطأنت إلى مثل هذا العرض السخيف فكيف يكون تعليل ذلك
لسيدها ، وكيف يكون تعليل ذلك لسادتي ؟ كلا ! هذه أحلام ليس
إليها من سبيل . ومهما أجتهد ومهما أحاول فإن الشر لا ينال إلا بالشر
والإثم لا يدرك إلا بالإثم ، ولن أبلغ هذه الغاية التي أسمو إليها حتى
أقتحم في سبيلها غمرات واقترف في سبيلها آثاماً .

لا بدّ إذن من بعض الشرّ ، ولا بد من أن أكر حتى أقصى
عن هذه الدار ، ومن أن أكيد حتى تقصى سكينه عن بيت
المهندس الشاب . وما أسهل المكر حين تنهياً له النفس ، وما
أيسر الكيد حين يطمئن إليه الضمير ! ومتى عجزت المرأة عن أن
تبلغ من المكر والكيد ما تريد ؟ لن أجد في تحقيق ما أريد
جهداً ولا مشقة إذا رضيت نفسي ما لا بدّ من أن ترضاه من
الشر ، واستباححت ما لم تكن تستبيحه من الإساءة والإيذاء

فأما سكينه فأمرها ميسور . وإنما هي زيارة للبستاني وإغراء له
ببعض المال ، واتفاق معه على أن يفسد الأمر على هذه الفتاة
ما وسعه ذلك ، حتى إذا انتهى منه إلى ما أحب وأخرجت
سكينه من الدار سعى إلى زنوبة من قبل سيده يلتمس خادماً ، ويومئذ ...
وأما مخرجي أنا من هذه الدار التي أعمل فيها فليس أيسر منه

ولا أهون . لقد دخلت الدار ولم تكن فى حاجة إلىّ ، وإنما قبلنى أهلها
رفقاً بى وعظفاً على وإحساناً إلىّ ورعاية لعهد أمى . فأنا عندهم
ضيف أستطيع أن أرحل متى شئت ، وأستطيع أن أقيم ما
أحببت . على أن ظروف الحياة لم تضطرنى إلى أن أتكلف الاستئذان
فى الرحيل والتماس العلل والمعاذير ، وإنما قضت بأن أخرج من
هذه الدار إخراجاً وأنبذ منها نبذاً . وإنى لأذكر قصة ذلك الآن
فأبسم لها ابتساماً ملؤه الحنان والحب ، وكثيراً ما ذكرت هذه
القصة قبل اليوم فامتلاً قلبى حباً لهؤلاء الناس وحناناً إلى هذه
السذاجة التى كانوا يعيشون فيها والتى كانت تصور لهم أمورهم كلها
فى صورة الجد الذى لا يشبه جد ، والتى لا يتحدث بها الناس
فى هذه الأيام إلا ضحكوا منها ساخرين إن كانوا قساة القلوب
وابتسموا لها عاطفين إن كانوا من الذين يقدرّون الذكرى ويحبّون
الحياة التى لا تكلف فيها ولا رياء ...!

كان شباب الدار يعكفون أكثر النهار على كتبهم هذه التى
أقبلوا بها من القاهرة يقرأون فيها قراءة متصلة لا يكاد يصرفهم
عنها شيء ، وكثيراً ما كانوا يدعون إلى طعامهم فيبسطون ، وكثيراً
ما كان إبطاؤهم يغيظ أباهم ويملؤه بهم إعجاباً ولهم حباً ، وكان أهل

الدار جميعاً ، وربّها أولهم ، مقتنعين أشدّ الاقتناع بأن هؤلاء الشباب إنما كانوا يعكفون على هذه الكتب حباً للعلم وإيثاراً للدرس وجدّاً في التحصيل . وكانوا يتحدثون فيما بينهم بنشاط هؤلاء الشباب الذين لا يكفيهم العمل طول العام الدراسي في القاهرة ولكنهم يعملون أثناء الراحة ويحرمون أنفسهم لذة الرياضة والاستمتاع بشيء من النعيم . وإنما هي الكتب إذا أصبحوا ، وهي الكتب إذا أمسوا ، وهي الكتب إذا آن لهم أن يقولوا بعد الغداء . ما أشدّ فتنة العلم لهؤلاء الطلاب الأذكياء الذين يحبونه أشدّ الحب ويأخذون منه بأعظم الحظ ويريدون أن ينبغوا فيه وأن يظفروا بالشهادات في غير إبطاء ، وأن يكونوا موظفين بعد ذلك يتقاضون المرتبات في آخر الشهر ويؤدّونها كلها أو بعضها إلى أهلهم !.

وكان أهل الدار يجدون في هذه الأحاديث لذة ويطلقون خيالهم فيها إطلاقاً ، وكانت سيدة الدار تتمثل هذا كله وتتوسل في تحقيقه وتعجّله إلى الله بهذا الدعاء الساذج اليسير الذي تجرى به السنة أمثالها من أهل المدن والقرى ، وتكثر في الوعد بالندور المختلفة لهذا الشيخ وذلك الولي .

وكان ربّ الدار لا يكفّ عن التحدث بنشاط أبنائه وعكوفهم

على الكتب أكثر النهار وشرطاً من الليل حتى لقد كان يغيظ أصحابه ويملاً قلوبهم حسداً ، ثم يتحدث بذلك إلى زوجه فيملاً قلبها خوفاً من الحسد والحاسدين . وكان هذا الرجل الطيب الكريم يجد لذة في أن يختلس الوقت من حين إلى حين ويتنهر الفرصة التي يغيب فيها أبنائه عن هذه الغرفة التي رصت فيها الكتب رصاً فينسل إلى الغرفة انسلافاً كأنه اللص ، ويقف أمام هذه المائدة أو هذه الموائد التي نظمت عليها الكتب تنظيماً ، ويلقى على هذه الأسفار نظراتٍ ملؤها الإكبار والإجلال ، وقد يمدّ يده في تحفظ واحتياط إلى هذه الكتب فيمسها مساً رقيقاً ويمسحها مسحاً يسيراً كأنه يتبرك بها ويلتمس عندها ما يلتمسه عند الأولياء والقديسين إذا لقيهم أحياء أو زار قبورهم أمواتاً .

وقد يدفعه حبّ هذه الكتب وكلفه بها وحاجته الشديدة إلى الاستطلاع إلى شيء من الجراءة فيأخذ كتاباً منها وينظر فيه ليحفظ عنوانه وليتحدث به إلى أصحابه إن خرج إليهم ، أو ليقراً فيه سطرًا أو أسطرًا يفهمها أو لا يفهمها ، وهو يؤثر فيما بينه وبين نفسه ألا يفهمها فذلك أدنى إلى الإعجاب وأشدّ إمعاناً فيما ينبغي للعلم من الغرابة والارتفاع عن عقول العامة والجهلاء ، وهو أدنى

إلى ما ينبغي من الإعجاب بهؤلاء الشبان الناشئين الذين يعرفون ويفهمون ويسمعون ما لا يعرف أبائهم ولا يفهمون ولا يسمعون . وكثيراً ما كان يظهر هذا الرجل ميلاً فيه كثير من الحياء والتردد إلى أن يحدثه أبنائه ببعض ما يقرأون ويعطوه شيئاً من هذه الكنوز التي يملأون بها قلوبهم وعقولهم إذا أصبحوا وإذا أمسوا ، ولكنه كان شقيئاً دائماً لا يكاد يلمح لأبنائه ببعض ذلك حتى يجد منهم نفوراً وأزواراً فيضطر إلى الصمت والرضى بما هو فيه من جهل وحرمان . وكثيراً ما كان يتحدث إلى زوجه ببخل العلماء وضمنهم بالعلم وإيثارهم أنفسهم بلذاته وثمراته ، يتحدث بذلك متألماً محزوناً أو ثائراً مغضباً ، فتعزيه زوجه وتهدئه وترغم له صادقاً أو متكلفةً إن العلماء إنما يبخلون بالعلم على غير أهله إكراماً للعلم وإشفاقاً على الجاهل من أن يشق عليهم ما يسمعون فيقبل منها ذلك أو يجادلها فيه .

وكذلك كان هؤلاء الشبان وكتبهم بمكان الإعجاب والتقدير من هذه الأسرة الساذجة . ولكن الدار اضطربت ذات يوم أشد اضطراب وفسد فيها أو كاد يفسد كل شيء ، وقضى أهلها يوماً منعصاً كله شر ويأس ، وأمل خائب وظن كاذب . وكنت أنا مصدر

هذا البلاء فكفرت بخروجي من الدار عما جنيت من سيئة ، وما كان
أسعدنى بهذا الخروج ... !

لم أكن أقل من صاحب البيت كلفاً بالانسلال الى غرفة الكتب
والنظر إليها والقراءة فيها ، بل كنت كما قدّمت أتجاوز حظ صاحب البيت
من هذا كله فأختلس الكتب اختلاساً وأخفيها بيني وبين ثوبى
وأخلو إليها فى حيث لا أرى ساعات تقصر أو تطول ولكنها كانت
تمتلىء دائماً باللذة والمتاع . وكنت قد لاحظت كتاباً دميم المنظر
قبيح الشكل ، ردىء الطبع والورق ، يعكف عليه هؤلاء الشبان عكوفاً
متصلاً ، يستبقون إليه استباقاً ويتنافسون فيه تنافساً ويشتدّ اختصامهم
فيه ، ثم ينتهون إلى أن يتفوقوا على أن يتداولوه فيما بينهم لكل واحد
منهم وقت معلوم . فدفعت إلى أن أعرف هذا الكتاب وأتبين
ما يخفيه شكله الدميم وطبعه الردىء ، وورقه الحثير وجلده المبتذل
البالى ، من هذا السحر الذى خلب هؤلاء الشباب ودفعهم دفعاً
إلى التهالك عليه والتنافس فيه . وكثيراً ما التمت هذا الكتاب فلم
أجده قريب المنال بين هذه الكتب المرصوفة المعروضة ، فتبينت أن
هؤلاء الشبان لا يكادون يفرغون من النظر فيه حتى يخفوه اخفاء .
فلم يزدنى ذلك إلا كلفاً به وتتبعاً له ، وإلحاحاً فى البحث عنه .

وأعلم ذات يوم أن هؤلاء الشبان مدعوون إلى الغداء ، وأن الغرفة ستخلو لى ساعاتٍ من نهار ، وأنى سأستطيع أن أبحث عن هذا الكتاب ، وقد أقسمت لأجدنه ولأنظرن فيه ولأقضين معه أطول ما أستطيع أن أقضى معه من الوقت .

وقد انصرف الشبان إلى وليتهم ، وتخففت من أثقال ما كان على من عمل ، مسرعةً رشيقة سريعة النشاط انسلت إلى الغرفة ومضيت في البحث غير قليل ، وإذا أنا أظفر بما كنت أبتغى .
فيا للبهجة ويا للغبطة ، ويا للسعادة ويا للرضى ! هذا الكتاب بين يديّ دميم الصورة قبيح الشكل حقير الورق ردىء الطبع ، ولكن اسمه ألف ليلة وليلة . وأنا أقرأ فيه وأنا أمضى في القراءة ، وأنا أنسى نفسى وأنسى مكاني ، ولكن ماذا أسمع ، وماذا أرى ؟
هذا باب الغرفة يفتح في غير احتياط ، وهذا رب الدار يدخل .
فقد كان مثلى ينتظر أن تخلو له الغرفة ليقف من هذه الكتب موقف الإكبار ، ولينظر إليها نظرة التقديس ، وليمدّ إليها يده ملاطفاً مداعباً ، ثم ليقراً من أسمائها وسطورها ما يبهربه أصحابه إذا خرج إليهم آخر النهار . ولكنه يرانى ، ويرانى أنظر في كتاب ، وفي كتاب لم يتعود أن يراه ، فهو يسألنى ماذا أصنع ،
(١٢)

وما أنا وهذه الكتب ؟ وأحاول أنا أن أخفي الكتاب الذي كنت أنظر فيه ، ولكنه قد أسرع فأخذه من يدي ، ثم زجرني زجراً عنيفاً وطردني من الغرفة طرداً .

على أنه لم يطل المقام في هذه الغرفة وإنما خرج منها بعد قليل ثائراً ساخطاً ، وأقبل على زوجه وفي يده هذا الكتاب فألقاه في وجهها إلقاءً ، واندفع في غضب لا حد له وفي شتم لا ينتهي ساخطاً على زوجه المسكينة وعلى أبنائه البائسين ، صاباً عليها نذراً متصلةً بالكوارث والأحداث ، معلناً إليها في غيظ عنيف مرة ، وفي حزن أليم مرة أخرى ، خيبة أمله في هؤلاء الأبناء الذين كان يظنهم محبين للعلم مؤثرين له متهاكين عليه ، فإذا هم أصحاب عيث ولهو ومجون ، وإذا هم ينفقون وقتهم في قراءة هذا الهذيان . . . ومن يدرى لعلهم ينفقون وقتهم في هذا أثناء إقامتهم في القاهرة على حين يظن هو أنهم يجدون ويعملون ويحصلون العلم . وهو إذن إنما يجد ويكد وينفق حياته وماله ليمضي أبنائه في هذا السخف وفي هذا اللهو الآثم القبيح . وهم لا يضيعون وقتهم وجهدهم ، وجدّ أبيهم وكده وماله وأمله فحسب ، ولكنهم يخربون بيت أبيهم بأيديهم كأنهم يجهلون أن هذا الكتاب لم يدخل بيتاً إلا خربه تخريباً .

ثم يعود الرجل إلى غرفة الكتب فيقلب كل ما فيها تقليباً ، وما يزال يبحث حتى يظفر بأجزاء الكتاب كلها ، ثم يعود بها منتصباً ساخطاً معاً ، ثم يمزقها تمزيقاً ، ولا يطمئن حتى يشعل فيها النار . وقد نفص يوم الأسرة كله فلم يذق الرجل ولا أهل الدار فيه طعاماً .

وعاد الفتیان آخر النهار فلا تسل عما سمعوا ولا عما رأوا ولا عن صمتهم حين صمتوا ، ولا عن قولهم حين قالوا ، ولكن النتيجة الأولى والأخيرة فيما أظن لهذا كله هي أنى طردت من الدار طرداً . ورجعت إلى بيت زنوبة وإلى غرفتها تلك فقصيت فيها أسابيع أنتظر ما يجرى به القضاء ، وما تنتهى إليه حيلة البستاني الذى ضوعف له الأجر .

(٢١)

« ستعملين إذا كان الغد يا آمنة وستعملين عملاً يرضيك كما لم يرضك عمل من قبله قط ، لا تذكرى بيت المأمور ، ولا تذكرى بيت فلان هذا الذى دفعتك الحماقة فيه إلى هذا الذنب العظيم . ستعملين عملاً مريحاً فيه مال كثير ، ونعيم كثير ، ومتاع كثير . ستعملين . . . ستعملين وستسعين ، ليتنى كنت مكانك ، ليت

سنى تعود إلى حيث أنت من العمر . ستعملين وستسعين . . ! »
 قالت ذلك وهى مضطربة أشد الاضطراب ، مبهتة أشد الابهتاج ،
 يدفعها الفرح والمرح إلى أن تأتى حركات مختلطة فيها الرقص
 والقفز ، وفيها الجد والهزل ، وفيها الدعابة التى ليس بعدها دعابة
 والمجون الذى ليس بعده مجون . حركات على الوجه ، وحركات
 باليدين ، وحركات فى الجسم كله مجتمعاً ، وفى أعضائه متفرقة .
 حركات هى بالجنون والاختلاط أدنى منها إلى الفرح المعتدل الذى
 يصدر عن نفس مرحة وعقل متزن . ولم تكتف زنوبة باضطرابها
 هى ، واختلاطها هى ، وإنما انقضت على انقضا ، فقبلتنى
 وأنهضتنى ، وراقصتنى ودارت بى حول الغرفة دوراناً متصلاً سريعاً
 حتى انتهت بى وبنفسها إلى السقوط . كل ذلك وهى مندفعة
 فى حركاتها وأحاديثها ، لا تمكننى من أن أقول كلمة أو أنطق
 بحرف أو آتى من الحركات غير ما تريد . قد استحال إلى جنية
 وأصبحت الغرفة ميداناً لاضطرابها المختلط الذى لم يقف ولم يهدأ
 إلا حين أسقطها الدوار وأسقطنى معها على الأرض وحين أفقت
 منه بعد قليل . . .

هنالك استطاعت أن تتكلم كلام العاقلة ، واستطعت أن أسمع

لها وأن أفهم عنها ، فعلمت أن المهندس في حاجة إلى خادم وأنه قد أرسل يتقدم إليها في أن تتلمس له هذه الخادم ، وأنه يمنحها على ذلك أجراً يختلف باختلاف الخادم التي تقودها إليه مع الصباح إذا كان الغد . وهي مبتهجة لى وهي مبتهجة لنفسها ؛ فما أكثر ما قدّمت لهذا الشاب من خدم وما أكثر ما تقاضت منه أجر ما قدّمت ، ولكنها لم تقدّم إليه يوماً من الأيام فتاة مثلى ، لها مثل مالى من جمال الوجه ، واعتدال القدّ ، ورجاحة العقل ، ومهارة اليد ، والعلم بحاجات الشبان المترفين . سيكون أجراها مضاعفاً ، أما أنا فسأسعد السعادة كلها في هذا البيت الأنيق الجميل ، وفي خدمة هذا الشاب المترف الغنى الوحيد . لن تأمرنى سيدة الدار ، ولن ينازعنى خدم الدار . سأكون وحدى صاحبة السلطان المطلق على بيت هذا الشاب وعلى قلبه إن أحببت ، فقلبه مباح لمن يحسن الوصول إليه والاستيلاء عليه .

قالت ذلك وأرسلت شهيقها المرتفع ، وشخيرها المنكر ، وضحكها العالى ، ثم انقضّت علىّ فضمتنى إليها ضمّاً عنيفاً وهي تقول : إني لأغبطك وأحسدك معاً . أغبطك لأنى أحبك ، وأحسدك لأنى أود لو أكون مكانك وأظفر بالسلطان على ما يحتوى هذا البيت من نعيم .

وأنا أسمع منها وأبسم لها وأرفق بها ، فلا أنبئها بأنى قد دبرت لهذا اليوم تدبيراً ، وأعددت له إعداداً ، واشتريته بالمال ، وانتظرت مقدمه واثقةً بأنه سيقدم ، مطمئنةً إلى أنه سيحين . ولم أظهرها على هذا كله ، وأمرى كله فى حاجة إلى الحزم وفى حاجة إلى المكر والكيد .

نعم لم أنبئها من هذا كله بشيء ، ولم أنبئها حين أصبحنا بأنى لم أذق النوم لحظةً فى هذه الليلة الطويلة التى فرقت بين نفسين وإنما قضيت الليل كله يقظة ، أفكر فى أمس البعيد وأفكر فى اليوم ، وأفكر فى غدٍ وفيما بعد غد ، على حين كانت هى تحلم بما باعت وما ستبيع من حب ، وبما أخذت وما ستأخذ من أجر ، وبما ذاقت وما بقى لها أن تذوق من هو ، وعلى حين كانت أحلامها هذه المختلفة تدعو جسمها إلى أن يأتى حركات مختلفة تلائمها وتدعو لسانها إلى أن ينطق بجمل متقطعة مختلفة توافقها . وكنت أرى ذلك منها وأسمعه ، فأرثى لها وأرثى لنفسى أيضاً . أرثى لها فى حياتها هذه الصغيرة الحقيمة التى خلت من كل حس دقيق ، أو شعور عنيف ، أو تفكير عميق ؛ وأرثى لنفسى من حياتى هذه المضطربة التى يملؤها الحس والشعور والتفكير ، وتنعمها الأحداث والخطوب .

نعم قضيت الليل كله مؤرقة ، وليس من شك في أنه كان طويلا ،
وليس من شك في أنه كان ثقيلا لو فرغت له ، ولكنى شغلت
عن الليل بينات الليل . شغلت عن طول الليل وثقله بصورتك
أيتها الأخت العزيزة البأسة ، هذه التى لم تكد تحس أنى خلوت
إلى نفسى حتى تراءت لى ، ثم دنت إلى ثم استقرت منى غير
بعيد ، ثم أخذت تتحدث إلى نفسى حديثا أعقله ولا أسمعهم ،
وأجد له فى قلبى وقعا لاذعا حلوا معا . صورتك هذه التى رأيتها كما
كنت أراها حين ذهبنا إلى الغرب ، وكما كنت أراها فى بيت العمدة
قائمة تحت السماء ذاهلة لا تحس شيئا ولا تلتفت إلى شيء ، وكما كنت
أراها حين كنت أنبهك إلى نفسك وإلى مكانى منك ، وحين كنت
أتحدث إليك وأستمع لك وحين كنت أواسيك وأعزيك ، وأجهد
فى أن أفيض عليك السكينة وأشيع فى قلبك الأمن والهدوء .

ها أنت هذه تسعين إلى ، وتجلسين إلى جانبى ، وهذا
رأسك قد مال حتى استقر على كتفى ، وهذه يدي تلاطف خدك
وتبللها دموعك المنهمة الصامتة ، وها أنا هذه أخلى بينك وبين
البكاء حيناً وأمضى معك فيه ، ثم أثوب إلى الهدوء وأردك إليه ،
وهذه يدي تلاطف شعرك الغزير ملاطفة متصلة حتى يملكك الأمن

ويوشك النوم أن يضم عليك ذراعيه . ولكنك تنهضين وتذهبين ،
ثم تعودين إلى بعد قليل واجمةً ثم مروّعة ، وأنا أستقبلك رفيقةً
بك ، مهدئةً لك . وهذه الأشباح الحمراء تتراءى لنا كما كانت
تتراءى لنا في بيت العمدة قبل أن نأخذ في هذا السفر الأثيم ،
ولكنك لا تكادين ترين هذه الأشباح الحمراء حتى تهيمى بها ،
وتنهضى إليها ، وتستحيل إلى شبح أحمر بين هذه الأشباح الحمراء !
وها أنتنّ هؤلاء تظفن بي وتضطربن من حولى وتستبقن إلى أذنيّ
تردن أن تلقين فيهما ألوان الحديث ، وها أنا هذه مروّعةً مفجعةً ،
أرى الجنون وأشفق منه وأهم أن أصبح ، وأذكر مكاني في دارنا
تلك في أقصى الريف نحو الغرب أثناء العلة ، وها أنا هذه أرى
الينبوع الكريه يتفجر منه ذلك الدم الغزير ، وها أنا هذه أنهض
خائفةً مولّهةً ، أريد أن أفرّ من هذه الغرفة ولكن إلى أين ! ؟

نعم إلى أين والليل ساكن جاثم ؟ وأين تستطيع فتاة مثلى أن
تذهب والليل ساكن جاثم ؟ لأوقظنّ هذه المرأة التي تختلف عليها
الأحلام وتنعم بلذة النوم في ناحية من نواحي هذه الغرفة ، لأوقظنها
ولأقضينّ معها بقية الليل في الحديث ... ولكنى لا أكاد أسعى إليها
حتى تأخذنى الأشباح الحمراء من كل مكان ، وحتى تسعى إلى أختي

وعلى وجهها ابتسامة شاحبة حزينة مستعطفة ، وهى تلتقى فى نفسى
هذه الكلمات التى تقع منها مواقع السهام المحرقة : لا توقظيها إنها
تخيفنا ، وإن يقظتها تطردنا ، ماذا تخافين منا ؟ لقد طال ما ألفتنا
وألفناك ، أفسيئتنا إلى هذا الحد ؟ كلا ، كلا ، لم أنسكن ولن
أنساكن ، ولن أذودكن عن نفسى ، ولن أوقظ هذه المرأة التى
تخيفكن . أقن معى ، أظن بى تحدثن إلىّ ، فمن يدرى لعل أن
أكون فى يوم من الأيام واحدة منكن ، لعل أن أكتسى هذا الرداء
الأحمر القانى الذى تكتسبينه والذى يدعونى إليكن ويخيفنى منكن ... !

وهذا صوتك أيها الطائر العزيز يحمله إلىّ الهواء من بعيد فيبلغنى
نحيلاً ضئيلاً ، ولكنه على ذلك يشيع فى سكون الليل كما يشيع
الضوء فى الجو ...

وهذا صوتك أيها الطائر العزيز يدنو منى شيئاً فشيئاً فيملأنى
أمناً ودعةً وهدوءاً ، وحزناً معاً . إنه يردنى إلى اليقظة الخالصة التى
تشعر بنفسها وتفكر فى نفسها وتذكر ما مضى على علم به ، وتقدير له ،
وتستقبل ما سيأتى فى روية وبصيرة واستعداد للاحتمال ...

نعم إن صوتك ليملاً أذننى ، وإنه ليملاً قلبى ، وإنه ليغمر نفسى ،

وإني أفهم عنه ما يريد ، وإني لأذكر أختي ومصرعها ، وإني لأعرف من دفعها إلى الموت ، كما أعرف من أذاقها الموت . وإني لأعلم حق العلم أني ساعية إذا كان الغد إلى بيت هذا المهندس فقيمة فيه حيث كانت تقيم أختي ، فناهضة بما كانت تنهض به أختي من العمل ، فمنتهية بعد إلى شيء آخر غير الذي انتهت إليه أختي في ذلك الفضاء العريض . . .

لقد سمعت منك أيها الطائر العزيز ، وفهمت عنك ، وهذا عقلي يثوب إلى ، وهذه قوتي تردّ على ، وها أنا هذه أنتظر الصبح لأسعى إلى هذا المهندس وإن قلبي لمظلم أشدّ الإظلام ، وإن وجهي لمبتسم أجمل الابتسام ! . .

(٢٢)

وأقبل سيدي الجديد على مبتسماً راضياً يحدّق النظر في وجهي تحديقاً طويلاً ، ثم يفصل النظر إلى جسمي كله تفصيلاً ، كأنه يمتحن متاعاً يريد أن يشتريه . ولو قد استطاع نهض إلى فاختبرني بيديه اختباراً وتعرفني باللمس ، ولكنه كان فيما يظهر قد احتفظ لنفسه ببقية من حياء فاكتمني بهذه النظرات المتصلة الطوال

التي تجرّد المرأة من ثيابها تجريداً ، والتي كنت ألقاها مضطربةً لها أشدّ الاضطراب نائرةً لها أشدّ الثورة .

ولكن كنت أتمالك ما وسعني الجهد وضبط النفس حتى لا يرى عليّ اضطراباً ولا ثورة ولا شيئاً ينكره . وهو يسألني عن اسمي ، وعن أهلي ، وعن أمرى كله ، فألفق له من ذلك ما ألق ، وأزيّن له من ذلك ما أزيّن . وهو يسمع مني مصداقاً لي أو غير حافل بما يسمع ، إنما يريد أن يعرف صوتي ووقع حديثي . ثم هو يأمرني أن أقبل وأن أدبر ، وأن أدنو وأن أبعد ، وأن أنحرف إلى يمين وأن أنحرف إلى شمال ، وأنا أستجيب إلى كل ما يدعوني إليه . وقد هدأ اضطرابي وسكنت نفسي ، وعاودني صوابي ، وأنا أتحدث إلى نفسي بأن هذا الفتى يعرف حقاً كيف يكون شراء الرقيق . . !

ثم يقبل آخر الليل ولم يكن يقدر أني سألقاه قائمةً باسمه ، أقبل إلىّ في ظلمة الليل يسعى كأنه الحية أو كأنه اللص . ولكنه لم يكد يبلغ باب الغرفة ويتبين شخصي ماثلاً في وسطها وعلى وجهه ابتسامة شاحبة كأنها ابتسامة الأشباح حتى أخذه شيء من الذعر ، فتراجع خطوات ثم قال في صوت أبيض جعل يأخذ لونه الطبيعي

قليلا قليلا : ماذا ؟ ألا تزالين ساهرة إلى الآن ؟ أتعلمين أين أنت من الليل ؟ قلت : لقد جاوزت ثلثيه ، وما كان ينبغي لى أن أنام قبل أن ينام سيدى فما يدرينى لعله يحتاج إلى شىء .

قال وقد عاد إليه ثباته وهدوء نفسه ، واستردّ صوته شيئا من قبحته المألوفة ودعابته البغيضة : ما رأيت قبلك خادماً مثلك تحسن العناية بسيدها وتسهر منتظرةً لمقدمه إلى آخر الليل . لقد كنت أحسبك نائمةً كما تعودت أن أرى من سبقك فى خدمتى . وكنت أقدر أنى سأجد فى إيقاظك بعض الجهد فلست أدرى ما بال نوم الخدم يثقل حتى كأنهم أموات ! قلت فقد أرحت سيدى من هذا الجهد وانتظرت مقدمه كما تعودت منذ اصطنعت خدمة المترفين الذين لا يحبون إنفاق الليل فى دورهم ، فليأمر سيدى بما يريد . قال وهو يضحك ضحكاً سمجاً وقد مدّ إلى يداً وددت لو استطعت قطعها ، ولكن تراجعحت حتى لا تبلغنى : فإن سيدك يأمرك أن تتبعيه .

ثم انحدر إلى غرفته ومضيت فى أثره . . .

وصدّق المسكين أنى كنت أنتظره . ولو قد نفذ إلى قلبى واستمع إلى أحاديث نفسى لعرف أنى لم أكن أرقّة فى انتظاره وإنما كنت أسامر أشباحاً حمراء لو رآها للملء قلبه رعباً ولو لى منها

فراراً . ولكن لم ير إلا إياي ولم يفكر إلا فيّ ، وماله وللأشباح
الحمراء !

(٢٣)

وعدت إلى غرفتي بعد ساعة ، راضيةً عن نفسي كل الرضى ،
مطمئنةً إلى قوتي كل الاطمئنان ، فقد بلوت الخصم ولقيت العدو في
ميدانه الذي اختاره هو ، وكانت بيني وبينه مقدمات النضال ،
فلم أضعف له ، ولم أشفق منه ، وإنما ثبت له ثباتا ، ثم انصرفت
عنه وقد علّقته بين السخط والرضى ، ووقفته بين اليأس والأمل .
لم أجد في شيء من هذا كبير مشقة ، ولم أحتمل في شيء من
هذا عظيم عناء ، وإنما هو الابتسام المطمع الغري ، والاحتشام
الذي يفلّ العزم ويثبّط الهمم ، ويسيطر سلطان الحياء على النفس
فإذا هي ترتدّ بعد امتدادها ، وعلى الوجه فإذا هو يظلم بعد إشراق .

وقد كنت أقدر أن المعركة الأولى ستكون عنيفة يملؤها الهول
ويحرق بها الخطر ، وتنتهي إلى الفصل فيما يكون بيني وبين هذا
الشاب فإما ضعف واستئسار ، وإما قوة وانتصار ، يتبعهما الطرد
العنيف من هذه الدار . ولكني ملكت أمري وملك هو من أمر نفسه

ما جعل المعركة الأولى مقدمةً لا خاتمة ، وما أجّل الفصل في هذه الخصومة إلى أجل ظنه قريباً ورأيته بعيداً ، وقد انصرفت عنه بعد أن أعنته على بعض أمره وهيأت له ما يحتاج إليه ، وتركته كاسف البال يظهر الرضى والابتهاج ، وهو يقول : لا بأس إنك في حاجة إلى التربية والتمرين .

ولم أكد أثوب إلى غرفتي وأغلق بابها من دوني إغلاقاً محكماً حتى تراءت لى أختى ، وهذه الظلال التى ترافقها ، كأنما كنّ ينتظرنى ليعلمن علمى وليسمعن نبأ ما أبليت مع الخصم من بلاء . ولقد هممت أن أتحدث إليهن ، وأقص عليهن ما سمعت وما رأيت ، وما عملت وما أبيت . ولكن ماذا ؟ أنهن ينظرن إلى نظراً قصيراً ، ثم يلمع فى وجوههن الشاحبة ابتسام الرضى ، ثم يستخفين استخفاءً كأنما ابتلعهن الظلام ابتلاعاً ! وكنت أظن أنى سأنتظر معهن مطلع الفجر ، سامرةً كما كنت أسمر منذ حين ، قبل أن يرقى إلى سيدى كأنه اللص ، ولكنى ألتسهن من حولى فلا أرى لهن محضراً ولا مظهراً وألتسهن فى نفسى فلا أظفر منهن بشيء . لقد غبن عن عيني ، وغبن عن نفسى ، وكأنهن أمرن الذكري أن تتبعهن وتمضى إلى حيث مضين . فأنا

أريد أن أذكر فلا أستطيع ، وأريد أن أفكر فلا أجد سبيلاً إلى التفكير ، وأنا آوى إلى مضجعي وقد كنت أزمعت ألا آوى إليه . ولكن للقوة البدنية حداً ، ولكن للتعب سلطاناً هو بإسطه ، وغاية هو بالغها . ولقد قضيت ليلة لم أذق فيها النوم ، وهذه الليلة الثانية قد انقضى أكثرها ، وكادت توالى نجمها تتغور ، فلا بد إذن من بعض الراحة سواء أَرْضِيت أم كرهت .

ومن أجل هذ فارقتنى أيتها الأخت العزيزة ، وفارقتنى معك هذه الظلال الحمراء . إنكن لرفيقات بي شقيقات على ، وما يمنعكن من ذلك وأنا عندما تَردن ، لم أهن ولم أضعف ، ولم أنهزم لهذا العدو الماكر القوى ! ليت شعري أكنتن ترفقن بي ، وتشفقن على ، وتنصرفن عني وتخلّين بيني وبين النوم ، لو أئى خالفت عن أمركن واستجبت أو أظهرت الاستجابة لذلك الدعاء البغيض الذى كان يرسله إلى سيدي بالعين واليد واللسان ؟ !

(٢٤)

على أن الأمر بين سيدي وبينى لم يلبث أن تعمّر بعد يسر ، وتعدّد بعد سهولة ، واشتدّ بعد لين . فكل شىء أجل ، وللصبر أمد ينتهى إليه ، وللمطاوله غاية تقف عندها ، والمياسرة خير إلا أن

تستحيل إلى ضعف وإذعان ، وما ينبغي لسيدى أن يظهر مظهر
الضعيف المذعن لخدام مثلى ليس لها حول ولا طول ، وهى
لا تأوى إلى ركن شديد ، ولا تعز بقوة تحميها من بأسه وتعصمها
من سلطانه ، وإنما هى كلمة منه تبقياها فى داره عزيزة مكرمة أو
تخرجها من هذه الدار ذليلة مشردة ، وقد علق سيدى هذه
الكلمة فى طرف لسانه أياماً وأياماً ، يهيم بأن يرسلها حتى إذا
بلغت شفثيه وكادت تتجاوزها إلى الهواء الذى يحملها إلى ردت
إلى مكانها واستقرت فى موضعها من طرف اللسان استقراراً
وأطبقت شفثاه من دونها إطباقاً .

ومدت لى أسباب البقاء فى هذه الدار يوماً أو بعض يوم ريثما
يخرج سيدى لبعض شأنه ، ثم يعود فيدعونى إلى ما كان يدعونى
إليه فى هذا الإلحاح المتصل ، المضحك الحزن ، الذى يفسد على الرجل
أمره ويظهره قوياً كأنه الليث وضعيفاً كأنه الفأر ، عزيزاً كأنه
السيد ، وذليلاً كأنه العبد ؛ ويطلق لسانه بما شاء له الهذيان من
هذه الكلمات الجوفاء التى يملؤها الاستعطاف حين تكون نذيراً
ووعيداً ، ويملؤها المكر والكيد حين تكون استعطافاً واسترضاءً ،
وتصور دائماً نقيض معانيها الظاهرة ، وتعبّر دائماً عما لم يرد صاحبها إليه ،

ويملاً نظراته بهذا الشرر المحرق حيناً ، ثم بهذا الانكسار الذليل
حيناً آخر ، ويجعله يدور حول غايته التي يشتهيها وأمنيته التي
يبتغيها ، كما يدور العابد حول الصنم ، وكما يدور اللص حول
البيت يبتغي ثغرة ينسل منها إليه !

نعم ! كذلك كنت ألقى سيدي مع الصبح ، باسمه مشرقة الوجه
أحمل إليه قدح الشاي وبعض الفاكهة قبل أن يثب من سريره .
وقد كان سيدي يحيا حياة الانجليز ، فلا أكاد أدخل عليه حتى
ترتفع إلى عيانه وقد ملأتهما عواطف شديدة الاختلاف ، ومعان
عظيمة التناقض ، فيها الحب وفيها البغض ، فيها الأمل وفيها
اليأس ، فيها الوعيد وفيها الخوف ، فيها الشهوة وفيها الزهد ، فيها
النأي وفيها البعد . وأنا أرى هذا وأحسه وأفهمه ، ولكن يا لقوة
النساء ، إنني لأقبل عليه بالشاي والفاكهة والتحية كأني أرى
شيئاً ، ولا أحسن شيئاً ، ولا أفهم شيئاً : ثم أنصرف عنه وفي
نفسى ما فيها من الرضى ، وفي قلبي ما فيه من الإشفاق ! فقد
كنت راضيةً عن نفسى ، وساخطةً عليها ، وقد كنت شامتةً في
سيدي ومشفقةً عليه ، وقد كنت أَرْضى لنفسى ما أنا فيه من
الإطاع والامتناع ، ومن القرب والبعد ، لأعذاب هذا الشاب الذي
(١٣)

قتل أختي ، وكنت أنكر على نفسي هذا كله ، وأراه لعباً بالنار ،
وتكلفاً للشر ، وإمعاناً في الإثم . وقد كنت أرى أني قد خلقت
لنفسى جواً من الرذيلة أعيش فيها إذا أصبحت ، وأعيش فيه
إذا أمسيت ، وأتنفس هواء المنكر ، وأبعث فيه سماً زعافاً ؛
فما هذا الكيد الذي أكيد ، وما هذا المكر الذي أمكره ، وما
هذا التفكير الآثم الذي أملاً به رأسي وقلبي !؟ أصبح فأفكر في
هذا الشاب لأغويه وأضنيه وأنقص عليه يومه ، وأمشي فأفكر
في هذا الشاب لأدنيه وأقصيه وأورق عليه ليله ! وأنا فيما بين ذلك
لا أفك أفكر فيه ، عاطفةً مرة ، وصداقةً مرة أخرى ، لينةً
حيناً ، وقاسيةً حيناً آخر .

هذا كثير . وأكثر منه أن تفرغ له فتاة كانت تستطيع أن
تفرغ لما هو أطهر منه وأنقى ، وأكثر من هذا وذاك أن
يستسلم هذا الشاب لما يغمره من ضعف ، ويتورط فيما يبت
حوله من شباك ، ويتعلق بفتاة مهما تكن فهي ليست شيئاً ،
والفتيات غيرها كثير يستطيع أن يلتمسهن متى شاء وكيف
شاء . وأي شيء أيسر من أن يرسل بستانيه إلى زنوبة أو إلى
امراة أخرى من اشباه زنوبة ، فلا ينقضي اليوم حتى تكون عنده

فتاة أو فتيات يختار من بينهم من يشاء ، فما أكثر هؤلاء الفتيات
اللاتى يلتصقن العمل فى المدينة قد نشأن فيها أو انحدرن من
الريف كما انحدرت أنا منذ أعوام ! ؟ ولكن نفس الإنسان ضعيفة
حقاً ، وقوية حقاً . لقد أقبلت على نفس سيدى ، كما أقبلت على
غيرى تلتصق عندى الحب ولذاته وآثامه ، فلما وجدت منى
امتناعاً عليه وصدوداً عنه ونفوراً ملحاً منه ، أعرضت عن الحب ولذاته
وآثامه ، أو أرجأت الحب ولذاته وآثامه وتعلقت بى أنا ، تريد
أن تقهرنى وتغلبنى على أمرى وتنتصر على ، وتظفر منى بما تريد .
فسيدى لا يطلب عندى الآن حباً ولا لذةً ولا إثماً ،
وإنما يطلب إلى خضوعاً وإذعاناً واستسلاماً ، هو يريد أن ينتصر
لا أن ينعم . ومن يدرى لعله إنما يؤجل إقصائى عن داره حتى
يتم له النصر ، ويتحقق له الفوز ، فيخرجنى ذليلةً صاغرة قد
أمنت له وأذعنت لسلطانة ! ويكفى أن يخطر لى هذا الخاطر
وإذا أنا مثله متعلقة بالعناد ، ملحّة فى الخصام ، قد نسيت
الانتقام أو كدت أنساه ، وأعرضت عن أختى وظلالها الحمراء ،
أو كدت أعرض عنهن ، ولم أتمثل إلا عدواً يريد أن يقهرنى
ولا بدّ من أن أقهره ، وسيداً يريد أن ييسط سلطانة على ولا بدّ
أن أبسط سلطانى عليه .

وكذلك اتصلت حياتي في هذه الدار هادئةً في ظاهر الأمر مضطربةً أشدّ الاضطراب وأعظمه نكراً في حقيقة الأمر ، ألقى سيدى باسمه ويلقاني باسماً ، ثم لا يتصل اللقاء بيننا حتى يستحيل الابتسام إلى عبوس ، والرضى إلى سخط .

وإذا هو يدعو فأبى ، ويلجّ في الدعاء فألجّ في الإباء ، ويفرى فأرتفع عن الإغراء ، وينذر فاستخفّ بالندير ، ويستعطف فأقسو على الاستعطاف .

ثم يا للهول ماذا أرى ! وماذا أسمع ! وماذا أجد ؟ هذا سيدى ماثلاً بين يديّ يتلطف ويترفق ثم يستعطف ويستجدى ، ثم هذا هو جاثياً بين يديّ كأنه يتقدم إلىّ بالصلاة ، ثم هذا هو باكياً في صمت ، ثم هذا هو مجهشاً بالبكاء ، وها أنا هذه أ كاد أضعف ويكاد يأخذني الإشفاق لولا أن أجمع قوتي كلها ونفسي كلها وأدعو إلىّ أختي وظلالها الحمراء ألتمس منهن العون ، وأستمدهن قوة إلى قوة .

وأمضى بعد ذلك فيما كنت فيه من إباء ، ثم ينتهى الأمر بيننا إلى شيء يشبه المواعدة ، وإذا أنا قد أخلصت له ولنفسى ، وإذا هو قد أخلص لى ولنفسه ، وإذا نحن نتحدث في هدوء وأمن واستقرار . فأما هو فقد استيقن اليأس وعجز عن احتمال ، وأما أنا فأهوّن عليه الأمر مخلصاً صادقة وأزيّن له الانصراف عنى إلى من أحبّ وما

أحب من الخليلات والخدم واللذات ، وإذا نحن نتفق على أن نفتق ، وإذا هو ينصرف عني على ألا يراني في الدار إذا عاد إليها . وأنا أقبل ذلك راضيةً عنه سعيدةً به ، فقد سئمت هذه الحرب وضعفت عن هذه الخصومة ، وكرهت هذه الحياة التي تملؤها المطاولة والمحاولة ، وتنقلها المهاجمة والمقاومة ، وقنعت من الغنيمة بالإياب أو بشيء خير من الإياب . فسأخرج من الدار ظافرةً بعض الشيء ، أليس قد عجز هذا الشاب الجميل الوسيم المترف الغنيّ القويّ أن يبلغ منى ما بلغ من أمثالي ، أو لست أخرج من هذه الدار وقد جرّعته مرارة الهزيمة ، وعلمته أن من فتيات الريف الساذجات الغافلات من يستطعن الثبات لأمثاله والامتناع على أصحاب الذكاء والجمال والترف والجاه والثراء ؟ ولقد انصرف عني هادئاً وقد أظهر الرضى ، وفرغت لأمرى أتهياً للرحيل مزمعةً ألا أرى زنوبة ولا ألقاها هذه المرة ولا أقيم في المدينة ولا أعود إلى أقصى الريف ، وإنما آخذ قطاراً من هذه القطارات التي تمضى إلى الشمال نحو القاهرة ، أو إلى الجنوب نحو عاصمة الإقليم ، فأرض الله واسعة ورزق الله ميسر لمن ابتغاه . وها أنا هذه قد حزمت أمرى وجمعت متاعى الخفيف وصممت أن أخرج ، ولكن البستانى موكل بالدار يمنعنى

أن أخرج منها ويحول بينى وبين الباب ، وينبئنى بأن سيده ألقى إليه أثناء انصرافه أمراً حازماً صارماً أن يحول بينى وبين الطريق ، وأن يتكلف ما يستطيع وما لا يستطيع ليمسكنى فى الدار حتى يعود . وإذا فلم يكن جاداً حين اتفق معى على أن نفرق ، وإذا فلم يكن هادئاً حين أظهر الهدوء ولا راضياً حين تكلف الرضى ، وإنما كان ماكرّاً مخادعاً ، ومن يدرى لعله كان صادق العزم خالص الرأى فلما انصرف عنى تمثل الهزيمة وتمثل آثارها وأعقابها فأبت عليه نفسه أن يرسل هذه الفتاة ولما يخضعها لما أراد .

وقد استيأست أو كدت أستئس من ذلك الخاطر الذى كان يعيننى أول الأمر على المقاومة أو يغرينى بها أو يدفعنى إلى الإغراء والإطاع ثم إلى الإباء والامتناع . فقد كنت أعتقد أن لهذا الشاب فى أرباباً ، أنه يشتهينى كما أشتهى غيرى من الفتيات ، وأن امتناعى عليه قد زاده حرصاً علىّ وتعلقاً بى . ولست أكذب نفسى فكثيراً ما سألتها : أترى شهوته قد استحالت إلى حب ؟ أما الآن فأنا مستيقنة أنه لا يحبنى ، بل لم يحبنى قط ، وأنه لا يشتهينى ، ولعله يزدرينى ، وإنما يريد أن يقهر فى عدواً متمرداً وخصماً عنيداً ، فلاألقينّ البأس بالبأس ولألقين العناد بالعناد .

وما كان أيسر الهرب لو أنى رغبت فى الهرب أو فكرت فيه ،
 لكنى كنت أريد أن أترك الدار جهرةً لا سراً وعلى علم منه
 لا على جهل . ومن يدرى ، لعلى لم أكن أحب أن أترك الدار ،
 وإن كان هذا الخاطر لم يعرض لى ظاهراً جلياً . وهو يعود مع
 المساء ، وما أكثر ما يعود الآن مع المساء ، وينفق ليله كله فى
 الدار لا يسمر ولا يلقى أصحابه . ومن يدرى بما كان أصحابه
 يعملون انقطاعه عن السمر وإيثاره للعزلة . ولكنه يعود اليوم
 إلى الدار هادئاً ظاهر الرضى ، ويلقانى كما انصرف عنى مبتسماً
 فى كآبة ، وهو يسألنى : أما تزالين هنا وقد فارتكت على ألا
 القاك إذا عدت ؟ !

أجل فارتقتى على ألا تلقانى ، ولكنك أمرت خادمك ألا
 يخلنى بينى وبين الطريق .

من زعم لك هذا ؟ لقد كذبت الخادم ، وما أرى إلا أنه
 حريص على بقائك ، كاره لفراقك ! ومن يدرى لعلك أنت
 لا تكرهين البقاء معه والاتصال به ، فهو الذى سمّاك لى ، وهو
 الذى أنبأنى بمكانك ، وهو الذى جاء بك إلى هذه الدار . إني
 إذن لأحق ! لقد خدعنى هذا البستانى ولقد اتخذ دارى مسرحاً

للوه وهواه . فانت إذن لا تعرضين عني ولا تمتنعين عليّ إشاراً
للشرف وإستبقاء للعفاف ، فقد ذهب الشرف منذ زمن بعيد وضاع
العفاف منذ أقبلت أو قبل أن تقبلي على هذه الدار . وفي سبيل
من ذهب الشرف ، وفي سبيل من ضاع العفاف ؟ في سبيل هذا
البستاني الذي تهوينه ، وما أشك في أنه يهواك .

وكان هادئاً مطمئناً حين بدأ هذا الحديث حتى لم أكن
أشك في أنه كان عابثاً متكلفاً يلتمس الوسيلة الى استئناف ما بيننا
من الخصام ، ولكنه لم يكد يمضي في حديثه حتى أخذ هدوءه
يفارقه شيئاً فشيئاً ، ولم يكد ينتهي الى غايته حتى كان غضباً
كله ؛ وشرّاً مستطيراً يتمثل إنساناً ، يتكلم ويتحرك ، ذاهباً جائئاً
متهيناً للبطش لا يكاد يمتنع عنه إلا في جهد شديد .

على أني لقيت عنفه هذا وسخطه كما تعودت أن ألقى كل ما
قدّم إليّ من ألوان العنف واللين ، ومن ضروب السخط والرضى ،
ثابتة مطمئنة ، وقلت له في هدوء : لا بأس عليك ، خل بيني وبين
الطريق ثم تبين بعد ذلك أتجمعني بالبستاني جامعة ، أو تصلني
به صلة . فلئن خلّيت بيني وبين الطريق لآخذن أول قطار ، ولولا
أن أشقّ على مولاي وأكلفه ما لا يتكلف السادة للخدم لعرضت

عليه أن يضعني في القطار وأن يرسلني إلى أي مدينة شاء ، فإني لا أبتغي إلا أن أعيش ، في حيث آمن على شرفي هذا الذي يذهب ، وعلى عفافي هذا الذي لم يضع وإن ظن سيدى بي الظنون .

قال في غيظ يشبه الرضى وفي سخرية تشبه الجد : ما تزالين تذكرين السيد والخدم : فقد علمت منذ حين أن ليس بيننا سيادة ولا خدمة ، وإنما بيننا ما هو شر من ذلك وأبعد أثراً . قلت وما ذاك ؟ قال : هو هذا . . . ثم اندفع إلى هاجماً كأنه الليث يريد أن يزدرد فريسته ازدرداً ، ولكن المرأة لا تغلب إلا إذا أحببت ، ولا تقهر إلا إذا أرادت ؟ ولا تدعن إلا إذا رغبت في الإذعان . ومن أجل ذلك ارتدت عني كما هجم على ، واستؤنف الخصام بيننا كما كان من قبل عنيفاً ليناً ، وملتوياً مستقيماً ؟ وفيه ما فيه من هذه الألوان التي تفسد حياة العاشقين وتزينها في وقت واحد .

وتتصل الحياة على هذا النحو ، لا أجدر لنفسى منها مخرجاً ولا يجد لنفسه منها مخرجاً ، وإنما دفع كل منا إلى صاحبه دفعاً ، ورد كل واحد منا عن صاحبه رداً ، لا يستطيع أن يخرجني من

داره ، ولو قد أراد ذلك لكرهت أن أخرج من هذه الدار ،
ولا أستطيع أن أفارقه جهرةً ولا خفية ، ولو قد فعلت لطلبني
حيث أكون من الأرض . فليس عندي شك الآن في أن
سيدى لا يشتهينى ولا يبتغى أن يظهر علىّ وينتصر على خصم
عنيد ، وإنما هو الحب . هو الحب الذى يطمع فى كل شىء
ويرضى بأقل شىء ، بل يرضى بلا شىء ، بل هو سعيد كل السعادة
ما وثق بأن بيتاً واحداً يحويه مع من يحب ويهوى . هو الحب
ما فى ذلك شك ، ولكن الشك المؤلم المضى إنما يتصل بهذا
القلب الذى يضطرب بين جنبىّ أنا ، فما خطبه ؟ أمبغض هو كما
كانّ مبغضاً من قبل ؟ أراغب هو فى الانتقام كما كان راغباً من
قبل ؟ أحافظ هو لعهد هذه الأخت التى صرعت فى ذلك الفضاء
العريض ، ولعهد الأشباح الحمراء التى تقيم معها على هذا الينبوع
الأحمر ؟ والتى قد طال مقامها معها حول هذا الينبوع ، وانقطعت
زيارتها لهذه الدار فلم تلمّ بها منذ حين ؟

نعم ! الشك فى هذا القلب الذى يضطرب بين جنبىّ بعد أن
أستيقن أن هذا الشاب يحبني ولا يستطيع عنى سلواً . ما خطب
هذا القلب ؟ أحب هو أم غير مكترث ؟ فإن تكن الأولى فقيم

المقاومة ، وفيم العذاب ، وفيم تعذيب الحبيب ؟ وإن تكن الثانية
فقيم البقاء في هذه الدار ، وفيم الصبر على هذه الحياة التي لا تطاق ،
كلا ، كلا ! فكرى يا آمنة ، ماذا أقول ؟ فكرى يا سعاد ..
فقد محى اسم آمنة منذ دخلت هذه الدار .

فكرى يا سعاد فقد آن لك أن تفكرى ، وأعزى أمرى فقد آن
لك أن تعزميه ، أقيمي كما تقيم العاشقة أو ارتحلي كما ترتحل القالية ،
فأما هذه الحياة المعلقة فليس لأحد فيها خير وليس لأحد فيها غناء ،
ولم يبق لك إلى احتمالها سبيل !

(٢٥)

وقد فكرت سعاد ، وما كانت في حاجة إلى التفكير . وقد امتلأ
قلبا وعقلها بهذه الحياة التي تحياها امتلاءً ، وامتزجا بها امتزاجاً ،
حتى أصبحت جزءاً منهما أو أصبحتا جزئين منها ، وحتى أصبح من أعسر
الأشياء وأشقها أن تفكر الفتاة في هذه الحياة تفكيراً هادئاً مجرداً
لا يتأثر بهذه العواطف العنيفة الحادة التي تتصور مرة كأنها النفور
الذى لا نفور بعده ، وتتصور مرة أخرى كأنها الإقبال الذى

لا إقبال بعده ، وهى فى الحالين شىء واحد تختلف عليه الصور والأشكال دون أن يتغير جوهره الذى هو الحب .

نعم ، لقد أصبحت سعاد عاجزة كل العجز عن أن تخلو إلى نفسها ساعة من نهار أو ساعة من ليل ، بل أصبحت عاجزة كل العجز عن أن تخلو إلى نفسها فى يقظة أو نوم ، إنما هى مصطحبة هذا الشاب إن حضر ، ومصطحبة هذا الشاب إن غاب . لا تهم بالخلوة إلى ضميرها حتى تجد صورته ماثلةً فيه ولا تمدّ عينها إلا رأت شخصه ، ولا تمدّ أذنها إلا سمعت صوته . قد أخذ الحياة عليها من جميع أقطارها ، وقد زاد عنها كل شىء وكل إنسان ، وزاد عنها حتى أخذتها تلك العزيرة وأشباحها تلك الحمراء . وانتهى الأمر بها كما انتهى الأمر بهذا الشاب نفسه إلى علّة تشبه الجنون . لقد صرفت إليه عن كل شىء ، وصرف إليها عن كل شىء .

ولم يبق بين هذين الخصمين العنيدين صراع أو تفكير فى الصراع ، وإنما هو الإذعان الذى لا ثورة بعده والاستسلام الذى لا رجوع فيه .

ولكن الكبرياء ما زالت مسيطرةً على سعاد تصارع الحب فيها فتصرعه ، وتغالb العشق فيها فتغلبه . وما أكثر ما اندفعت

الفتاة إلى الاستسلام حتى إذا كادت تنتهي منه إلى غايته ، وحتى إذا بلغت حافة الهوة وكادت تتردى فيها تمثلت لها الكبرياء قويةً عنيفةً ، ونصبت أمام عينيها مرآةً تنظر فيها فترى صورة آمنة الأبية العزيزة ، وترى صورة سعاد الضعيفة المتهالكة ، فترتد وراءها خطوةً أو خطوات ، وتوجل الإذعان والإلقاء باليد إلى أجل يقصر أو يطول !

وقد تغيرت سيرة سيدى أيضاً ؟ فهو محب يلقي من الحب عناءً وبلاءً ، ويجد من آلامه مثل ما أجد . ولكن كبرياه قد ردت إليه هو أيضاً فأصبح يتمنى في غير إلحاح ، ويأمل في غير إلحاف ، كأنما أحسَّ حبه شيئاً من حياء فأثر القصد والاعتدال ، وكأنما أحزَّ الإخفاق المتصل فأثر الحرمان في شيء من العزة على ذلك الإلحاح الذى لم يكن يعقبه إلا هزيمة وخذلان .

ولكنه يقبل على ذات مساء وعلى وجهه ابتسامة فيها شيء من الرضى ، وفيها كثير من الحزن ، وفيها شك يتردد بين الرضى والحزن . يقبل على ذات مساء لا ثائراً ولا مستسلماً ، ويقول لى في صوت لا حدة فيه : لقد آن لك أن تستريحى ، وأن لى أن أستريح ؟ فأنظر إليه نظرة التى لم تفهم عنه والثى تعودت أن تسمع كثيراً

فتفهم أو لا تفهم دون أن تحفل بما يستقر في نفسها أو يعزب عنها مما تسمع . ولكنه يعيد على حديثه فأسأله عما يريد فيقول : سنفترق لأنى نقلت إلى القاهرة .

وتقع من نفسى هذه الجملة موقع الصاعقة ، وإذا أنا ذاهلة لا أجيب ولا أتكلف حتى إخفاء الذهول ، وإذا أنا أجد شيئاً من الدوار يكاد يبلغ بى الإغماء لولا أن أتمالك ، وإذا دموع تنهمر فى صمت متصل ، وإذا الفتى يدنو منى فلا أرتد عنه ، وإذا هو يضع يديه على كتفى فلا أمتنع عليه ، وإنما أنا مغرقة فى الصمت ودموعى ماضية فى الانهمار ؛ والفتى قائم بمكانه منى فى هدوء لم أعده ، ينظر إلى صامتاً دهشاً ، ثم ينأى عنى قليلاً وهو يقول فى صوت شاحب : ماذا أرى أنك لتكرهين فراقى حقاً ؟

ثم يعود إلى صمته ، وأمضى أنا فى صمتى ، وتمضى دموعى فى الانهمار . وما أدرى أطل بيننا هذا الموقف أم قصر ، ولكنى أسمعته يدعونى فى صوت قد فارقه شحوبه وعاد ممتلاً مشرقاً كما عرفته ، وأرفع رأسى وأحاول النظر إليه من وراء هذه الدموع المنسكبة فأرى وجهاً مشرقاً أشد الإشراق ، قد استقرت فيه أمارات الحزم

والهدوء ، وإذا هو يقول لى : أما والأمر بيننا على ما أرى فلن نفترق . ستصحبيني إلى القاهرة ولن ينالك منى إلا ما تحبين . هلم فامضى فى شؤونك كما تعودت أن تفعلى ، وهىئ من أمرى وأمرى للسفر فلن نقيم هنا إلا أياماً .

ثم ينصرف عنى كما أقبل على هادئاً رزين الخطى . وقد أنكرت من نفسى كل شىء ، وأهم أن ألوم نفسى على هذا الضعف الذى لم أستطع إخفاءه ، ولكنى لا أجد من نفسى قوة على اللوم . وإذا أنا راضية عن هذه الحال الجديدة رضى عميقاً قد مازج نفسى واختلط بدى ولكنى فى الوقت نفسه رضى حزين ليس فيه ابتهاج ظاهر ، وإنما هى حياة الخادم التى اطمأنت إلى ما يلم بها من الأحداث ، ومضت فى حياتها لا تنكر شيئاً ولا تعرف شيئاً ، وإنما هى مستسلمة تذهب وتجيء ، وتأتى من الأمر ما تأتى ، وتدع من الأمر ما تدع ، لأنها لا تستطيع أن تفعل غير هذا ولا تريد أن تفعل غير هذا ، ولأنها تجد فى هذا أقصى ما كانت تنتظر من السعادة .

والغريب أنه هو أيضاً قد جعل ينظر إلى منذ ذلك الوقت نظراتٍ برئت من الطمع والأمل ، وقنعت منى بما يقنع به السيد .

النقى من الخادم النقية ، فلا إثم بيننا ولا تلميح إلى الإثم ولا خوف من التورط فيه ، وإنما هى حياة نقية بريئة قد استؤنفت بيننا كأننا لم نلتق قبل ذلك الوقت ، وكأن أحدنا لم يعرف صاحبه قبل تلك الساعة التى أنبأنى فيها أنه قد آن لكلينا أن يستريح لأنه نقل إلى القاهرة .

وإنى لأدعو أختى حين أخلو إلى نفسى فى النهار ، وحين أخلو إلى نفسى فى الليل فلا تستجيب لى صورتها التى كنت أعرفها فى المدينة باسمه مشرقة ، ولا تستجيب لى صورتها التى عرفتُها فى بيت العمدة واجهة هائمة ، ولا تستجيب لى صورتها التى كنت أراها مطرقةً إلى ينبوعها الأحمر ، تطيف بها ظلالها الحمراء .

لا تستجيب لى صورة من هذه الصور ، وإنما هى ذكرى غامضة حزينة تلذع القلب أحياناً فتندفع لها بعض الزفرات وقد تنهمر لها بعض العبرات ، ثم لا تلبث أن تنجاب كما ينجاب السحاب الرقيق ، وإذا أنا أعود إلى حياتى المضيفة المائدة ، الحزينة فى غير تكلف لحزن أو سرور .

وأنتقل مع سيدى إلى القاهرة وأقيم معه فى دار أبويه موكلّةً لخدمته لا أكلف شيئاً غيرها من أعمال الدار ، ولا أجد من

أبويه إلا براً وعطفاً ، وإلا رفقاً وحناناً . فأما هو فقد جعل ينظر إلى كلما تقدمت الأيام كما ينظر إلى الصديق لا كما ينظر إلى الخادم ، قد اصطفاني لنفسه ، واختصني بوده ، وجعل يشركني في كثير من أمره .

يا لله ! إنى لأحسُّ شَبهاً بين هذه الحياة التى أحيأها مع هذا الشاب فى دار أبويه الفخمة بالقاهرة وبين تلك الحياة التى كنت أحيأها مع خديجة فى بيت أبويها بمدينة من مدن الأقاليم . لقد عاد الأمر بينى وبين هذا الشاب إلى مثل ما كان بينى وبين خديجة من النقاء والطهر ، ألم أخلق إلا لأحيا حياة الأصدقاء . !

ولكنها صداقة غريبة هذه التى تقوى وتنمو بين هذا الشاب المترف الغنى ، وهذه الخادم البائسة التى طالما طبعت فيها نفسه الطامحة . وأغرته بها عواطفه الجاحمة ، والتى طالما اتخذها غرضاً لأهوائه الآثمة ، وابتغى عندها من اللهو والجنون ما يبتغيه أمثاله من الشباب المترفين عند أمثالها من البائسات الغافلات ، فلما لم يظفر منها بشيء حاصرها كما تحاصر القلعة ، وحاربها كما يحارب العدو ، فلم يستطع أن يقهرها ، ولم تستطع أن تقهره . وأقاما معاً فى شيء من الموادعة لا يستطيع عنها سلواً ، ولا تستطيع عنه

انصرافاً لا يشير إليها من آماله ومطامعه بقليل أو كثير ، ولا تلاقه
هى من مقاومتها وامتناعها بقليل أو كثير لأنها لم تعد فى حاجة
إلى المقاومة أو الامتناع .

أأكذب نفسى أم أصدقها ؟ أأصارعها بالحق أم أموه عليها
الأمر ؟ لقد رضيت حياتنا الجديدة واطمأن إليها قلبى كل
الاطمئنان ، واغتنبت بها نفسى أشدّ الاغتنباط ، وارتاح إليها
ضميرى هذا المتعب المعب الذى كان فى حاجة إلى أن يرتاح .
ولكن أظل قلبى مطمئناً ونفسى مغتبطةً وضميرى مرتاحاً بعد أن
مضت علينا الأسابيع والشهور فى مدينة القاهرة قريبين بعيدين
مؤتلفين مختلفين ؟ ألم أشعر شعوراً غامضاً بأن هذه الهدنة قد طالت
وبأن هذه المواجهة قد اتصلت أكثر مما كان ينبغى أن تتصل ؟
ألم أجد فى أعماق ضميرى شوقاً إلى تلك الحرب وجنوحاً إلى ذلك
الخصام ؟ ألم أحسّ فى دخيلة نفسى أن حياء هذا الشاب قد يكون
لوناً من الصدّ وأن احتشامه قد يكون فناً من الإعراض ؟ بلى !
وجدت هذا كله وأنكرته من نفسى أشدّ الإنكار ولمتها فيه أعنف
اللوم ، وما أشك فى أنه وجد من نفسه مثل ما كنت أجد ،
ولام نفسه فى مثل ما كنت ألوم نفسى فيه .

وقد زاد هذا الحمل ثقلًا على نفسه وعلى نفسى أنه سار منذ انتقل إلى القاهرة سيرته تلك التى ألفها فى الأيام الأخيرة من حياته فى الأقاليم ، فكان يغدو إلى عمله مصباحًا ويروح إلى دار أبوية حين يتقدم النهار فلا يكاد يخرج منها إلا إذا كان الغد . ومع ذلك فأمثاله من الشباب لا يلمّون بدورهم إلا ليخرجوا منها ، إنما دورهم فنادق يطعمون فيها ويأوون إليها آخر الليل . وفى القاهرة مما يفتن الشباب ويغريهم شيء كثير طالما سمعت أحاديثه قبل أن أبلغ القاهرة وبعد أن أقمت فيها .

فما بال هذا الشاب لا تبلغه فتنة ولا يناله إغراء ؟ لقد رضى أبواه أول الأمر عن هذه الحياة المستقيمة كل الرضى ، وابتهجا بمحضر ابنهما كل الابتهاج ، ولكنهما وجدا آخر الأمر أن الفتى قد أسرف على نفسه فى لزوم الدار والعكوف على القراءة والانتقطاع عن الأندية وما يكون فيها من لقاء الأصدقاء والتعرف إلى الناس . وكثيراً ما رغبته أمه فى الخروج فلم يستجب لهذا الترتيب ، وكثيراً ما أغراه أبوه بملاعب التمثيل ومجالس الموسيقى وزيارة هذا البيت أو ذاك من بيوت الأصدقاء فلم يستمع لهذا الإغراء ، إنما هو الغدو على العمل والرواح إلى الدار ، والأوقات ينفقها مع أبويه ، ثم

الانحياز إلى غرفته والانقطاع إلى كتبه يعكف عليها حتى يتقدّم الليل .

وكان في أثناء ذلك ربما دعاني إلى غرفته وأخذ يتحدث إليّ ويسمع مني ، وكانت المدينة وشؤون أهلها موضوع حديثنا في كثير من الأحيان كما كانت القاهرة وشؤونها موضوع حديثنا أحياناً أخرى . كان يتحدث أو يسمع جالساً إلى مكتبه ، وكنت أتحدث أو أسمع واقفة غير بعيد من مكتبه . وما أكثر ما دعاني إلى الجلوس وما أشدّ ما كنت أتمنى الجلوس ! ولكنني كنت أعتذر باسمه فما ينبغي لمثلي أن تجلس إلى مثله وإنما حسب مثلي من مثله الوقوف بين يديه والتحدث إليه والاستماع له ، وهذا كثير .

ألم تكن غريبة هذه الصداقة بيني وبين هذا الشاب على ما كان بيننا من الائتلاف والاختلاف ؟ أكانت صداقة خالصة أم كان وراءها أكثر من الودّ الذي يكون بين الأصدقاء ؟ ! أما أنا فقد كنت أجد وراء هذه الصداقة حباً ثائراً أكتمه على ما كان يكلفني كتمانها من الجهد ويحملني من المشقة والعناء . وأما هو فقد كتم أمره أسابيع وشهوراً حتى خدعني أو كاد يخدعني عن نفسه ، ولكنه ألقى النقاب ذات مساء فغيّر من أمرنا كل شيء .

ألقاه في غير جهد وفي غير تكلف ، لم يضطرب له صوته ، ولم يظهر على وجهه أثر العواطف المضطربة أو القلب الذي تضطرم فيه نار الحب . إنما تحدث إلى في هذا الأمر كما كان يتحدث إلى في أمر المدينة وفي أمر القاهرة بصوت لا ارتفاع فيه ولا انخفاض ، ولا اعوجاج فيه ولا التواء !

قال : ألا ترين أن الأمر بيننا قد آن له أن ينتهى إلى غايته ويبلغ مداه ؟ قلت : وما ذاك ؟ قال : هذا الحب الذى اختصمنا فيه وقتاً طويلاً وسكتنا عنه وقتاً طويلاً ولكنه لم يسكت عنا ، فما أظنه قد أمهلك يوماً كما أنه لم يمهلى ساعة . أما ينبغي أن تنتهى هذه الحياة الغامضة إلى ما يجب لها من الصراحة والوضوح ؟ وقد سمعت منه ولكنى لم أرد عليه جواباً .

فلما طال عليه صمتى استأنف حديثه فى صوت لا يزال سواء فقال : إنك تفهمين عنى اليوم ما أريد كما فهمت عنى من قبل ما كنت أريد . قلت مبتسمة : بل إنى لم أفهم عنك شيئاً . قال ضاحكاً : بل تفهمين أنى كنت أريدك على الإثم وأنى الآن إنما أريدك على الزواج .

واحتجت إلى أن أعتمد على كرسى كان منى غير بعيد ، فإن

فكرة الزواج لم تخطر لى قط وما كان ينبغى أن تخطر لى ، فقد أقدمت على كثير من خطير الأمر وتصورت فى نفسى كثيراً من جليل العمل ولكنى احتفظت دائماً بعقلى ولم يخرجنى الحب كما لم يخرجنى البغض ، ولم يخرجنى الأمل كما لم يخرجنى اليأس ، عن طورى فى لحظة من اللحظات . لذلك أحبته صادقةً بأن هذا أمر لا ينبغى العبث فيه .

قال وهو يضحك : فإنك تظنين أنى أعبت ، وتقدرين ما بينك وبينى من الفرق الاجتماعى متى تزوج السيد الغنى المترف من خادمه الشقية الفقيرة البائسة ؟ أليس هذا هو ما تقدرين ؟ فأريحي نفسك إذن من كل هذه الخواطر ، فقد رأيت منذ موقفنا ذاك فى المدينة أنى لست سيداً كغيرى من السادة ، وقد رأيت أنا منذ عرفتك أنك لست خادماً كغيرك من الخدم . لقد دهشت حين رأيتك تنتظرينى إلى آخر الليل على غير ما تعودت من الفتيات اللاتى سبقنك إلى خدمتى ، ولكنى لم أكن أقدر أنك ستثيرين فى نفسى ألواناً أخرى من الدهش .

ثم أطرق صامتاً فأطال الإطراق والصمت ، ولبثت ماثلةً ذاهلة لا أقول شيئاً ، وأكاد ، لا أعى شيئاً ولكنه رفع رأسه وقال

فى صوت هادىء حزين : أتقبلين ؟ قلت فى صوت ليس أقل من صوته هادوئاً ولا حزناً : فإن سیدی يعلم أن ليس إلى هذا من سبيل . قال : تفكرين فى أبوى ، فأنى قد فكرت فيهما قبلك وقد حزمت أمرى ، وما أشك فى أنهما لن يمتنعنا على ولو قد فعلا لعرفت كيف امتنع عليهما ، ولكنهما لن يفعلا ، فهل تقبلين ؟ قلت : ليس إلى ذلك من سبيل . قال : فمن حقى عليك أن أفهم هذا الامتناع ، إنك لتعلمين أن فراق بيننا مستحيل ، وإنى لأعلم كما تعلمين أن ليس لقلبيننا رضى إلا فى الزواج . قلت : فقد قضى على قلبينا ألا يرضيا . قال : ومن ذا الذى قضى عليهما هذا العذاب المتصل ؟ وهممت أن أجيب ولكن صوتى يخبس ، ودمعى ينطلق وإنى لأرانى أهم بالانصراف ، وإنى لأراه قد نهض من مجلسه متثاقلاً وسعى إلى متباطئاً حتى رددنى فى هدوء ودعة ، ثم عاد إلى مجلسه وقال : أترين إلى كيف أملك نفسى ! ألا تفكرين فى تلك الثورة الجاحدة التى شقيت بها وقتاً طويلاً ؟

أنبئنى من ذا الذى قضى علينا هذا العذاب المقيم ؟ قلت : أنت الذى قضى علينا هذا العذاب المقيم ، وأنا التى قضت علينا هذا العذاب المقيم . كلانا قضى على صاحبه ما نحن فيه من شر ونكر ، وكلانا

أتاح لصاحبه ما نحن فيه من هذه المواعدة الهادئة التي لا ينبغي أن
نطمع في خير منها ، فليس في الحياة خير منها بالقياس إليك ولا
بالقياس إلى . قال : فإن حديثك لم يزد إلا غموضاً . قلت : نخير
لنا أن تقبله على ما فيه من غموض . قال : وقد ظهر أنه يبذل
جهداً عنيفاً ليحتفظ بهدوئه : فإن أقسم لك أنى لم أعد أستطيع صبراً
على هذه الحياة ! قلت : وأنا أيضاً لا أستطيع صبراً على هذه الحياة ،
ولكن ما الذى نستطيع أن نفعل وقد سبق القضاء بما لم نحب . قال :
أى قضاء ؟ ألم يأن لك أن تفصحى ، ألم يأن لى أن أفهم ، ألم يأن
لهذه الظلمة أن تنجاب ؟ قلت : أحريص أنت على ذلك ؟ إني لأخشى
أن انجابت عنا هذه الظلمة وغمرنا الضوء أن يكره كل واحد منا
النظر في وجه صاحبه . قال وقد غلبه العنف فارتفع صوته قليلاً
واضطربت يده اضطراباً خفيفاً : بل أنا أريد أن أفهم مهما تكن
الواقعة . قلت : فأذن لى إذا بالجلوس ، ولم انتظر اذنه وإنما جلست
على هذا الكرسي الذى كنت أعتمد عليه ، وألقيت عليه قصتي في
صوت هادئ مطّرد لا يبله الدمع ولا يظهر فيه الحزن ولا ينم
عن قليل أو كثير من الاضطراب ، وإنما ألقيت عليه قصتي كأننى
أحدث عن شخص غريب إلى شخص غريب .

وما أدرى أطال الوقت الذى أُلقيت فيه قصتى أم قصر، ولكنى أعلم أنى سمعتنى أقول : أفهمت الآن ؟ أترى إلى هذا الضوء الذى يغمرنا ؟ أتستطيع أن تنظر إلىّ ، وقد انتظرت جوابه لحظة غير قصيرة ولكنى سمعته كأنما كان يتحدث إلىّ من مكان بعيد جداً ، سمعته يقول : نعم أستطيع أن أنظر إليك ولن أستطيع أن أنظر إلا إليك . وأنت أظليقي أن تنظرى إلىّ ؟ أما زلت تضررين الانتقام ؟ ولم أجب إلا بما تجيب به المرأة المغلوبة التى انكسرت نفسها وذاب قلبها فهو يسيل من عيناها دموعاً . ثم أسمعته بعد وقت لا أدرى أكان طويلاً أم قصيراً يقول لى : لقد كان من الممكن أن نفترق قبل أن يغمرنا هذا الضوء ، فأما الآن فقد أصبح افتراقنا شيئاً لا سبيل إليه . أليس من العجب أن يكون هذا الضوء الذى أخذ يغمرنا شراً من الظلمة التى خرجنا منها ؟ ! إن أحداً لن يستطيع أن يهتدى فى هذا الضوء إلا إذا قاده صاحبه ، إن العبء لأثقل من أن تحمله وحدك ، وإن العبء لأثقل من أن أحمله وحدى ، فلنحتمل شقاءنا معاً حتى يقضى الله أمراً كان مفعولاً .

ثم انقطع الحديث بيننا فلم يقل شيئاً ، ولم أقل شيئاً ، وأطبق على الغرفة صمت هائل رهيب ، غرقنا فيه يقظين كما يغرق النائم فى نوم برئ من الأحلام .

ولكن صوتك أيها الطائر العزيز يبلغني فينتزعني انتزعاً من
هذا الصمت العميق ، فأثب وجلةً مدعورة ، ويثب هو وجلاً مدعوراً ،
ثم لا نلبث أن يثوب إلينا الأمن ويرد إلينا الهدوء ، فأما أنا
فتنحدر على خدى دمعتان حارتان ، وأما هو فيقول وقد اعتمد
بيديه على المائدة : دعاء الكروان ! أترينه كان يرجع صوته هذا
الترجيع حين صرعت هنادى فى ذلك القضاء العريض ؟ !

القاهرة سبتمبر سنة ١٩٣٤

الطبعة الرابعة سنة ١٩٤٢



COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES

This book is due on the date indicated below, or at the expiration of a definite period after the date of borrowing, as provided by the rules of the Library or by special arrangement with the Librarian in charge.

[illegible]

APR 9 - 1987

MAY - 7 1987

1424229

44 45 46 47 48 49 50 51 52 53 54 55 56 57 58 59 60 61 62 63 64 65 66 67 68 69 70 71 72 73 74 75
PRINTED IN U.S.A.

893.7H954

P5

10424229

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE



CU07815360